الإعجاز القصصي في سورة نوح
"دراسة بلاغية"

الدكتـــــورة
فاطمة عبد المجيد عبد المجيد هنداوي جعفر
أستاذ مساعد بلاغة ونقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة

الإعجاز القصصي في سورة نوح
"دراسة بلاغية"

فاطمة عبد المجيد عبد المجيد هنداوي جعفر
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة، جامعةالأزهر، القاهرة، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني: FatmaHindawy١٥٠٧.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث :
تهدف الدراسة إلى إبراز الإعجاز القصصي والنظمي في القرآن الكريم من خلال تحليل سورة نوح تحليلا بيانيا، مركزة على الإعجاز القرآني من حيث السياق المقامى (مقام السورة في القرآن من خلال الترتيب النزولي والترتيب المصحفي)، والسياق المقالى (نظم السورة وتحليل أبرز ألوان البلاغة التي جاءت في آيات السورة من مطلعها وحتى ختامها). وذلك من خلال المنهج التكاملي الذي يعتمد على المنهج الاستقرائي من ناحية، والمنهج الوصفي من ناحية أخرى.
وقد جاء البحث فى مبحثين تسبقهما مقدمة وتمهيد وتتلوهما خاتمة وثبت المراجع.
أما المقدمة ففيها الهدف من الموضوع وخطته ومنهجه. وأما التمهيد ويتضمن مدخلا للحديث عن السورة من حيث معناها العام، وذكر نص السورة. وحديث عن وحدة الغرض في السورة، وعلم المناسبات ووجه

الإعجاز فيه. وأما المبحث الأول فكان الحديث فيه عن الإعجاز القصصي فى السياق المقامى من حيث موقع السورة بين سور القرآن وترتيب نزولها وسبب تكرار القصة. وعلاقة مطلع السورة بمقصدها وختامها وبما قبلها وما بعدها. وما انفردت به من مفردات وسر نظمها وإعجاز هذا النظم. وأما المبحث الثاني فكان عن الإعجاز القصصي فى السياق المقالى من حيث أهم الألوان والنكات البلاغية التي جاءت في السياق والتي ساعدت على استجلاء المعنى وظهوره وإعجاز نظمه.

أما الخاتمة ففيها نتائج البحث وكان من أهمها: أن التناسب بين السورة وسابقتها ولاحقتها سر من أسرار إعجازها، وأن ما ظاهره تكرار للقصة لم يكن كذلك، وإنما في كل مرة ذكرت فيها القصة كانت تحمل تفصيلا جديدا ومعنى لم يأت في سابقتها.

كما أن ألوان البلاغة التي جاءت في السورة كانت أداة من أدوات بيان سر الإعجاز في نظم السورة، حيث كان لبراعة الاستهلال دوره في بيان بلاغة نظم السورة وارتباطه بختام السورة السابقة وتناسبه معها. كذلك حسن الختام وارتباطه بمطلع السورة التالية وتناسبه معها، وتناسبه مع مطلع سورة نوح. كذلك استخدام الجمل الخبرية بشكل أكبر من الجمل الإنشائية، والتي تعانقت مع الجمل الإنشائية وصورت انفعال نبي الله نوح عليه السلام، وبينت نفسيته تجاه ما يعانيه مع قومه. فبالإنشاء يقوى الخبر وبهما معا

تكتمل الصورة المعبرة المؤثرة. كذلك التأكيد الذي أتى في بداية السورة وتوالى مع جملها الافتتاحية حتى ختامها، فأدت ما أريد بها من معان نفسية ومعنوية. مع ما انفردت به السورة من مفردات اتسقت في نظم السورة، فكانت معجزة بلفظها ونظمها. ثم مصادر ومراجع البحث.

الكلمات المفتاحية:

السياق المقامي.

السياق المقالي.

الإعجاز القصصي.

التناسب القرآني.

إعجاز النظم.

Narrative Miracle in Surat Noah
"A Rhetorical Study"

Fatma AbdulMageed AbdulMageed Hendawy Gaafer
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Cairo, Al-Azhar University, Cairo, Egypt.
E-mail: FatmaHindawy١٥٠٧.el@azhar.edu.eg

Abstract:

This study aims to highlight the narrative and systemic miracles in the Holy Quran through the rhetorical analysis of Surat Noah focusing on the Qur'anic miracle in terms of the locative context (the location of the surah in the Qura'n; its descending order and its arrangement in the Qur'an) and contexual context (the form of the surah and the analysis of the most prominent rhetorical figures that came in the verses of the surah from its beginning to its conclusion). The research follows the integrative approach that relies on the inductive approach on the one hand and the descriptive approach on the other. The research is divided into an introduction, a preface, two chapters and a conclusion followed by the references. The introduction contains the aim of the subject, the plan and the methodology. The preface includes the general meaning of the Surah mentioning its text, the unity of its purpose, the science of events and its aspects of miracles. The first chapter handles the narrative miracles in the locative context of the surah in terms of the location of the surah between the chapters (Suar) of the Qur'an, the order of its descent, the reason for the repetition of the story,

the relation between the beginning of the surah and its purpose, its conclusion, and what preceded and followed it. It also shows the Surah's unique vocabularies, the secret of its form and the miraculous nature of this form. The second chapter deals with the narrative miracles in the contexual context of the surah in terms of the most important rhetorical types and techniques that helped to clarify the meaning, its appearance and the miracle of its form. The conclusion contains the results of the research such as: the appropriatness between the surah and what preceded and followed it is one of the secrets of its miracle, and what appeared to be a repetition of the story was not so, but every time the story was mentioned it carried a new detail and meaning that did not come in the previous one. Also, the rhetoric that came in the surah was a tool for explaining the secret of the miracle in the Surah's form, whereby the ingenuity of the initiation had its role in explaining the rhetoric of the surah's form and its connection to the conclusion of the previous surah and its compatibility with it; the perfect conclusion and its relation to the beginning of the next Surah and its suitability with it, and its relevance to the beginning of Surat Noah. Also, the use of stating sentences (statements) more than interrogative sentences, made the stating sentences embraced the interrogative sentences and depicted the emotions of the Prophet of God, Noah, peace be upon him, and showed his suffering from his people because the interrogative sentences made the statements stronger and with both the impressive moving image is completed. Likewise, the assertion that came at the beginning of the surah and continued with its opening sentences until its end fulfilled the psychological and

moral meanings it wanted beside the unique words of the surah that were consistent in the Surah's form and was a miracle of its pronunciation and form. Finally came the sources and the references of the research.

KeyWords:

Locative context

Contexual context

Narrative miracle

Qura'nic appropriateness

Miracle of form

مقدمة

الحمد لله ذي الحجج البوالغ، والنعم السوابغ، والنقم الدوامغ، معز الحق وناصره، ومذل الباطل وقاصمه. والصلاة والسلام على سيدنا محمد، نبي الله وصفوته، آخر الأنبياء في الدنيا عصرا، وأولهم يوم الدين ذكرا، وأرجحهم عند الله ميزانا، وأوضحهم حجة وبرهانا، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه، وسار على نهجه إلى يوم الدين . **وبعد**،،،

فهذا بحث بلاغي بعنوان:

الإعجاز القصصي في سورة نوح – دراسة بلاغية

تناولت فيه جانبا من إعجاز القرآن الكريم في قصصه ونظمه، وسياقه المقامي والمقالي، ورغم تكرر الحديث عن قصص الأنبياء في القرآن، وتناول الكثير من الباحثين لهذا الجانب، إلا أن المكتبة البلاغية خلت من دراسة لسورة نوح– على حد علمي– فلم أجد باحثا في البلاغة تعرض لها بالدراسة إلا كتب التفاسير.

وتكمن أهمية الموضوع في أنه يعالج جانبا من إعجاز كتاب الله بوجه عام من ناحية، ويعالج الإعجاز القصصي من خلال مقام السورة وتحليلها، واستجلاء السر وراء انفراد قصة نوح بسورة وحدها كقصة يوسف، رغم ما بين القصتين من تباعد في الأسباب التي جعلت كلا منهما يذكر في سورة منفردة. فيوسف عليه السلام لم يذكر له قصة إلا في السورة المسماة باسمه، لكن نوح عليه السلام تردد ذكر حلقات من قصته على مدار أكثر من سورة، متوسطة التفصيل، دون إطناب أو إيجاز، وجاءت كل حلقة من القصة في

مكانها، مناسبة لمقام السورة وغرضها الواردة فيه. فما الداعي لأن تنفرد بسورة وحدها؟ وما أهم أسرار البلاغة في سياق السورة المقامي والمقالي؟ وما علاقة السورة في ترتيبها التوقيفي في المصحف بفاتحة الكتاب؟ وما أهم ألوان البلاغة التي ساعدت على استجلاء معنى السورة، والتدليل على إعجاز نظمها، وتفرد بعض ألفاظها؟

وقد كان منهج البحث تكامليا، يعتمد على المنهج الاستقرائي من ناحية، والمنهج الوصفي من ناحية أخرى. وقد قمت فيه باستقراء تام لقصة نوح في القرآن الكريم، وترتيب ورودها تنزيلياً (حسب ترتيب النزول) وترتيبيًّا (حسب الترتيب في المصحف) مقارنة بين مواضع القصة في كل سورة، والجديد الذي جاءت به سورة نوح، ومعلوم أن كل مرة ذكرت فيها القصة أتت بجديد، مما يدل على أنه لا تكرار في القصص القرآني، كما يبدو للوهلة الأولى والنظرة العجلى.

وقد جاء البحث فى مبحثين تسبقهما مقدمة وتمهيد وتتلوهما خاتمة وثبت المراجع.

أما المقدمة ففيها الهدف من الموضوع وخطته ومنهجه.

وأما التمهيد ويتضمن مدخلا للحديث عن السورة من حيث معناها العام، وذكر نص السورة. وحديث عن وحدة الغرض في السورة، وقصة نوح وأماكن ورودها في القرآن الكريم، والفرق بين ما ذكر في سور سابقة من حلقات القصة، وما ذكر في السورة ووجه الإعجاز فيه.

وأمـا المبحـث الأول فكـان بعنـوان: الإعجـاز القصـصي فى الـسياق المقـامي للسورة.

وأما المبحـث الثـاني فكـان بعنـوان: الإعجـاز القصـصي فى الـسياق المقـالى للسورة.

الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث.

ثم ثبت المصادر والمراجع.

والله أسـأل أن يجنبنـا الزلـل، ويعـصمنا الخطـأ في فهـم كتابـه، ويرزقنـا الإخلاص في القول والعمل.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الباحثة

تمهيد

قبل الدخول في دراسة السورة، تجدر الإشارة أولا لقصة نوح عليه السلام، حيث تكررت أكثر من مرة، بل يمكن القول أنها من أكثر القصص تكرارا بعد قصة موسى عليه السلام.

وقد ورد ذكر نوح عليه السلام في ثمان وعشرين سورة من القرآن الكريم، إحدى وعشرون مكية، وسبع سور مدنية، فكان أكثر ورودها في السور المكية، كما أنه لم تأت القصة إلا في السور المكية، أما المدنية فكانت فيها إشارات إما بذكر نوح عليه السلام، والتنويه بشأنه، أو بذكر عاقبة قومه الذين كذبوه ولم يؤمنوا بما جاء به.

ورغم هذا التكرار لم يتعرض باحث – على حد علمي – للبحث وراء تفرد ذكر قصة نوح عليه السلام في سورة باسمه رغم ذكر حلقات القصة على مدار تلك السور. وسر الإعجاز فيها.

وظاهر قصة شيخ المرسلين وأول أولي العزم من الرسل نوح عليه السلام، ظاهر قصته مع قومه التكرار، لكن المتأمل يجد أنه لا تكرار، وإنما جاءت مواطن القصة ملائمة لسياقها كما سيتضح.

والجدير بالذكر أيضا أن الترتيب النزولي للسور الوارد بها إشارة أو ذكر لطرف من قصة نوح عليه السلام يختلف عن الترتيب المصحفي التوقيفي، فمن حيث ترتيب النزول كان مجيء خبر نوح مع قومه بالترتيب التالي:

١- سورة النجم: وفيها إشارة لنوح دون ذكر قصته.

٢- سورة ق: وفيها إشارة لعاقبة قوم نوح على تكذيبهم.

٣- سورة القمر: ذكرت جانبا من القصة فيه التركيز على صنع السفينة ونجاة المؤمنين، وغرق الكافرين.

٤- سورة ص: كسورة ق فيها إشارة لتكذيب قوم نوح، وعاقبتهم.

٥- سورة الأعراف: وفيها جانب من القصة، ذكرت إرسال نوح عليه السلام، وتكذيبهم ثم سوء عاقبتهم، بإجمال دون تفصيل.

٦- سورة الفرقان: وفيها إشارة لعاقبة المكذبين ومن ضمنهم قوم نوح.

٧- سورة مريم: وفيها إشارة لنوح عليه السلام وبيان منزلته وأنه أبو البشر الثاني.

٨- سورة الشعراء: وفيها جانب من القصة يركز على ردهم السفيه لدعوته، وأنهم لن يؤمنوا به كما آمن الأرذلون، وتهديدهم لنبي الله بالرجم، ودعائه عليه السلام أن ينجيه الله ومن معه من المؤمنين.

٩- سورة الإسراء وفيها إشارة لذكر نوح عليه السلام ومن أمن معه.

١٠- سورة يونس: وفيها إجمال يوجز القصة ويركز على مقولة نوح لهم، وعرضه الدعوة عليهم، وتكذيبهم له وعدم تصديقهم بما أوعدهم. ووقوع العذاب بهم. والأمر بالاعتبار بمآلهم.

١١- سورة هود: وفيها شيء من التفصيل لم يرد في سابقتها من السور، إذ تتعرض السورة أول مرة لذكر ابن نوح الذي آوى إلى جبل يعصمه من الماء، وتفصيل مشاهد صنع السفينة، ومجيء الطوفان وغرق كل من لم يركب السفينة.

١٢- سورة الأنعام: وفيها إشارة لذكر نوح عليه السلام دون قصته.

١٣- سورة الصافات.

١٤- سورة غافر.

١٥- سورة االشورى.

١٦- سورة الذاريات.

وكلها جاء فيها ذكر لنوح وإشارة لعاقبة من كذبوه، والمنّ عليه بالنجاة ومن معه من المؤمنين.

١٧- سورة نوح: والتي اقتصرت على ذكر القصة كاملة وركزت على جوانب لم تذكر فيما قبلها، ولم تأت فيما نزل بعدها.

١٨- سورة إبراهيم.

١٩- سورة الأنبياء.

وفيهما إشارة لاسم نوح، وعاقبة قومه.

٢٠- سورة المؤمنون: وفيها جانب من القصة يركز على تكذيبهم، وبيان رد فعلهم تجاه الدعوة إلى الله، وصنع السفينة واستهزائهم، ثم غرقهم، وتطهير الأرض من شرهم.

٢١- سور العنكبوت، وهي أخر السور المكية التي جاء فيها ذكر لنوح عليه السلام واقتصرت الإشارة فيها على الزمن الذي مكثه نوح في دعوة قومه، وهو ما لم يرد فيما سبق من سور، ولم يرد فيما نزل بعدها.

٢٢- سورة أل عمران: وهي أول السور المدنية التي جاء فيها ذكر لمقام نوح عليه السلام. دون قصته.

٢٣- سورة الأحزاب.

٢٤- سورة النساء.

٢٥- سورة الحديد.

٢٦- سورة الحج

وكلها فيها إشارات إما لمكانة نوح عليه السلام، أو لعاقبة قومه الذين كذبوه.

٢٧- سورة التحريم: وفيها ذكر لامرأة نوح التي لم يرد ذكرها في القرآن كله إلا هنا.

٢٨- سورة التوبة: وهي آخر السور المدنية التي جاء فيها ذكر لنوح عليه السلام، واقتصرت الإشارة فيها على عاقبة المكذبين له.

هذا من حيث الترتيب النزولي، أما الترتيب التوقيفي والذي جاء عليه المصحف الشريف، فقد كانت سورة نوح آخر ما ورد من السور يذكر فيه الخبر والقصة.

سبقها ست سور ذكرت جوانب مختلفة من القصة لتلائم الغرض المسوق له السورة، وكلها سور مكية، وهي على ترتيب المصحف: (الأعراف- يونس- هود- المؤمنون- الشعراء- القمر)

ثم سورة نوح محل البحث.

والملاحظ لنسق القصة من أول ذكر لها في سورة الأعراف يجد أنها جاءت مجملة فقد أنذر قومه فكذبوه فاستحقوا العذاب، لأنهم كانوا قوما عمين، وهو وصف لم يأت إلا في هذه السورة.

وفي يونس أمر من الله سبحانه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يتلو على قومه نبأ نوح مع قومه، وذكرت جانبا من وعظه وتذكيره لهم، وما كان

من تكذيبهم واستحقاقهم العذاب، وأتبعت ذلك بالأمر بالنظر للاعتبار من مصير الظالمين المفسدين.

أما سورة هود فكانت أول سورة تفصل الحوار بينه وبينهم، وتذكر ابن نوح الذي لم يؤمن به، ورفض ركوب السفينة فكان من المغرقين. وصورت السورة مشهد انصياع الكون للأمر الإلهي من أرض وسماء، والبداية الثانية للبشرية، بعد غرق كل من كان على الأرض، وابتداء عهد جديد.

أما سورة المؤمنون فانفردت بذكر رد الكافرين على نوح بأنهم لن يؤمنوا لبشر مثلهم، حقدا منهم وكرها، وذكرت ذلك لتشابه سياقات الكافرين في رفض دعوة الحق وتكذيب الرسل.

أما الشعراء فانفردت بذكر تهديدهم لنوح عليه السلام بالرجم إن لم يكف عن دعوته، ويرتدع عما يدعوهم إليه، ويتركهم وكفرهم وظلمهم.

أما سورة القمر فانفردت بذكر صنع السفينة من ألواح ودسر، وأنها كانت محمولة وسط هذا الطوفان المغرق بعناية الله وحفظه.

ثم جاءت السورة الكريمة (نوح) جاءت تقص على النبي صلّى الله عليه وسلّم قصة نوح مع قومه في بعض المواقف الخاصة التي تدور حول دعاء نوح لهم، وكيف وقفوا منه، ليتأسى النبي صلّى الله عليه وسلّم بما حصل لنوح عليه السلام، وألا يأسى على قومه، وليعتبر أهل مكة بما حصل لغيرهم.

وانفردت بكثير من التفاصيل التي لم تذكر قبلها، حيث صورت نفسية نبي الله نوح، وتعداد النعم التي كان قوم نوح يرتعون فيها، وذكر أسماء الأصنام

التي كانوا يعبدونها من دون الله، ثم ذكر دعاء نوح عليه السلام عليهم بالهلاك والبوار.

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) {يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا

(٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)

المفردات[(١)]:

أَجَلٍ مُسَمًّى: أجل محدود بحد لا يتجاوزه. فِراراً: هربا وتفلتا منه.

وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ: جعلوها أغشية وأغطية لهم تستر بدنهم كله. وَأَصَرُّوا الإصرار على الأمر: عبارة عن لزومه والانكباب عليه، وأكثر ما يستعمل في الشرور والآثام. وَاسْتَكْبَرُوا: تكبروا. جِهاراً: مجاهرة. مِدْراراً: كثير الدرور غزير الانسكاب. وَيُمْدِدْكُمْ: يعطكم على فترات ما به تنتفعون.

وَقاراً: عظمة وتوقيرا. أَطْواراً: أحوالا مختلفة في الخلق من نطفة إلى علقة، وفي نفس الحياة من طفولة إلى شباب إلى كهولة وغير ذلك طِباقاً: متطابقة بعضها فوق بعض. سِراجاً: كل ما يضيء بنفسه فهو سراج. أَنْبَتَكُمْ: أنشأكم. بِساطاً أي: ممهدة كالبسط. سُبُلًا فِجاجاً: واسعة. كُبَّاراً أي: كبيرا. وَدًّا. سُواعاً. يَغُوثَ. يَعُوقَ. نَسْراً: هذه أسماء آلهة كانوا يعبدونها. وفي الأصل كانت أسماء رجال صالحين في قومهم. مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ: من خطاياهم. دَيَّاراً

---

(١) التفسير الواضح- د/ محمد محمود حجازي - دار التفسير للطبع والنشر- ط٨- ١٩٨١م. المجلد الثالث/ ج٢٨/ ٤٢، ٤٣.

المراد: لا تترك على الأرض من الكافرين أحدا يدور في دار. فاجِراً: فاسقا معتديا. تَباراً: هلاكا.

المعنى العام:

إنا أرسلنا نوحا إلى قومه، أي: حملناه قولا إلهيا، ورسالة سماوية هي: أن أنذر قومك، وحذرهم عاقبة كفرهم، ونهاية شركهم من قبل فوات الفرصة ومن قبل أن يأتيهم عذاب أليم شديد الألم، وماذا قال نوح! قال يا قومي: إنى لكم رسول أمين ونذير مبين، جئت بأمر، هو: أن اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئا، واتقوا عذابه وأطيعون، فإنه من أطاع الرسول فقد أطاع الله، إن تعبدوا الله حقا يغفر لكم ذنوبكم، ويؤخركم إلى أجل مسمى معلوم عنده، أى: جعل لهم أجلا إن ظلوا كافرين، وأجلا إن آمنوا، إن أجل الله إذا جاء وقته وحينه لا يؤخر مطلقا، ليتكم تعلمون ذلك فتعملوا له. ولكنهم مع هذا الدعاء اللين والعرض الجميل أصروا على كفرهم فماذا كان موقف نوح؟ إنه ناجى ربه وقال آسفا: رب إنى دعوت قومي - كما تعلم - إلى الإيمان والطاعة ليلا ونهارا وسرّا وإعلانا، فلم أر منهم إلا عنادا واستكبارا عن الحق وعن الصراط المستقيم، وإنى كلما دعوتهم إلى الإيمان لتغفر لهم أصموا آذانهم عن سماع تلك الدعوة، وحجبوا عيونهم عنها، وأصروا واستكبروا استكبارا. ثم دعوتهم جهارا، ثم إنى أعلنت لهم الحال وبينته لهم على كل وضع بحيث جمعت بين الإعلان والإسرار. **تلك هي المرحلة الأولى في الدعوة**.

تلتها مرحلة ثانية هي مرحلة الشرح وبيان الحجة حيث قال نوح: فقلت: استغفروا ربكم، وتوبوا إليه، إنه يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، إنه كان غفارا، على أنكم إن آمنتم بربكم يرسل السماء عليكم بالغيث الكثير الذي يخصب الأرض، ويأتي بالخير، ويمددكم ربكم عند ذلك بأموال نافعة وأبناء وذرية صالحة، ويجعل لكم جنات وبساتين. ويجعل لكم فيها الأنهار والعيون، أي: إن آمنتم أمدكم بسعادة دنيوية تكفل لكم حياة رغدة وعيشة راضية. ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا فناقشهم بقوله: أى سبب حصل لكم حال كونكم غير خائفين أو غير معتقدين لله تعالى عظمة توجب عليكم الإيمان بالله والطاعة لرسوله؟!! إن هذا لشيء عجيب، وشيء تنكره العقول السليمة. ما لكم لا تخشون الله وقدرته على كل شيء؟ وما لكم لا ترهبون سطوته فتؤمنوا به وتصدقوا برسله؟ وهو القادر على كل شيء، وهو الذي خلقكم في أطوار مختلفة وفي أحوال تكاد تكون متباينة، ألم يخلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم أخرجكم أطفالا ثم كنتم شيوخا، أليس صاحب هذا بقادر على كل شيء فما لكم لا تخافون عظمة الله؟ ولا تؤمنون بيوم القيامة! ثم لفت نظرهم إلى هذا الكون بعد أن نبههم إلى ما في أنفسهم من آيات فقال: ألم تروا السماء كيف خلقت؟ لقد خلقها الله سبع سموات طباقا، ما ترى فيها من نقص ولا تفاوت، وجعل القمر في إحداهن نورا، وجعل الشمس في أخرى سراجا وهاجا.

يا سبحان الله لقد جعل الحكيم العليم للقمر نورا، وللشمس سراجا، لأن الدنيا ستصبح بنور الشمس على أنه نور قوى شديد، ونور القمر بسيط يضيء

في الليل نوعا ما، وهو نور منعكس ليس من ذات القمر وهُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً، وقد توصل العلم إلى بعض الحقائق الثابتة في كتاب الله.. ثم لفت نظرهم إلى أنفسهم فقال: وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً، نعم هو خلقنا من تراب، فعناصرنا المادية تراب مخلوط بماء، ثم كانت النطفة، والنطفة خلاصة الدم، والدم من الغذاء، والغذاء من الأرض، فالله سبحانه أنبت الإنسان من الأرض نباتا كالشجر، ولكنه ميزه عنه بالحياة الحيوانية، ثم كمله بالعقل والتفكير، وشرفه بالرسالات الإلهية، فما لكم لا تؤمنون، لأي سبب تكفرون! ثم بعد هذا يعيدكم إلى الأرض أمواتا، ثم يخرجكم منها إخراجا للبعث والجزاء ... ثم لفت نظرهم إلى الأرض التي أقلتهم فقال: لقد جعلت لكم الأرض بساطا، فهي ممهدة للعيش، ميسرة سهلة للانتقال، لتسلكوا منها طرقا واسعة توصلكم إلى أغراضكم.

ويأتي الدور الثالث في القصة.

وقد أخذ نوح بعد هذا يشكو إلى ربه عصيان قومه؛ مبينا سبب هذا العصيان ونهايته، وفي هذا كشف لحقيقة كان يجهلها عامة المشركين. قال نوح: رب إنهم عصوني وخالفوا أمري واتبعوا رؤساءهم الذين حملوهم على الكفر، وأشاروا عليهم به لأنهم أصحاب مال وأولاد. فاغتروا بهم، واستكبروا واشتروا الضلالة بالهدى، وآثروا هذا الجاه الكاذب على النعيم الدائم، هؤلاء الرؤساء مكروا بعامتهم وبنوح مكرا كثيرا. فأما مكرهم بالشعب فلأنهم ضللوهم عن إتباع الحق، وحالوا بينهم وبين الإيمان بنوح - عليه السلام - وأما مكرهم بنوح فلأنهم كانوا يتظاهرون أمامه بأن الأمر

متروك للناس! وما كانوا يظهرون له أعمالهم الحقيقية، مكروا مكرا كبيرا، ولكن الله مكر بهم، وهو خير الماكرين. ومن طرق المكر التي كان يسلكها أشرافهم ورؤساؤهم أنهم أشاروا عليهم بل ونهوهم عن التفريط في آلهتهم، وكانوا يظهرون لهم في ثوب الناصح الشفوق. لا تدعن آلهتكم التي عبدتموها وعبدها آباؤكم من قبل، ولا تدعن خاصة ودّا، ولا سواعا، ولا يغوث، ولا يعوق. ونسرا، يا رب: هؤلاء الأشراف والرؤساء هم سبب البلاء والشقاء فقد أضلوا كثيرا، وما زالوا يضلون، يا رب: لا تزد الظالمين إلا ضلالا فهذه إرادتك، وهذا عملهم فلا أمل فيهم يرجى، فيا رب نفّذ فيهم إرادتك بهلاكهم، وبسبب خطاياهم التي أعظمها الكفر وإيذاء نوح عليه السلام.

وقد جاء خبره مفصلا في سورة هود، أغرقوا بالطوفان وماتوا فأدخلوا نارا، ليأخذوا عذاب الآخرة بعد عذاب الدنيا، ومع هذا كله لم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ينصرونهم ويردون عنهم هذا العذاب، فأين آلهتهم وأصنامهم وأوثانهم؟ وأين (ود.وسواع. ويغوث. ويعوق، ونسر؟) أين هؤلاء؟

وقال نوح من كثرة ما لاقى منهم: رب لا تذر على الأرض من الكافرين- المعاصرين له- شخصا واحدا منهم يسكن دارا أو يدور ويتحرك، وهذه العبارة تفيد الدعاء عليهم بمحوهم بالكلية، وقد أجاب الله دعاءه إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ ثم أخذ نوح عليه السلام يذكر سبب هذا الدعاء- والأمر كله لله- إنك إن تتركهم بدون هذا العذاب العاجل يضلوا

عبـادك ولا يلـدوا إلا ذريـة تكـون فجـرة كفـرة بـسبب اتخـاذ الكفـر سـبيلا، وتقليدهم فيه لآبائهم.

أما المؤمنون الذين آمنوا بالله وبرسوله فيقول نوح في شأنهم: رب اغفر لي واستر ذنبي- إن كان- واغفر لي ولوالدي، ولمن دخل بيتي- ولعله أراد شريعته أو سفينته- واغفر للمؤمنين والمؤمنات من كل أمة وفي كل زمن.

ولا تزد الظالمين لأنفسهم بالكفر ولغيرهم بالإضلال إلا تبارا وهلاكا[1]

(١) التفسير الواضح المجلد الثالث/ ج٢٨/ ٤٣: ٤٦. بتصرف يسير.

المبحث الأول: الإعجاز القصصي في السياق المقامي للسورة

إن مراعاة مقتضيات الأحوال هو هدف البلاغة الأسمى وعليه المعوّل في فهم الأساليب والحكم عليها، ومع أن البلاغة علم دقيق متخصص إلا أنه حين البحث، وخاصة في كتاب الله لابد أن ندرك أن العلوم العربية والإسلامية متمازجة متشابكة، تربط بينها رحم قريبة وعرى وثيقة، فالعلاقة بينها في حقيقتها تفاعلية تأثّرية وتأثيرية.

إن المطلوب أن نتتبع بلاغة السورة حتى نتبين شكلها وملامحها، وسِيَمِها، ولكل سورة من سور القرآن شكل من أشكال البلاغة، تراها في طبيعة معناها، في عمومه، وخصوصه، وفي إبهامه وبيانه، وتفصيله وإجماله، وجنسه ونوعه، وعرضه ولمحه، وطيه ونشره،وهو باب قد يتراءى سهل المرتقى، قريب المنال، ولكنه في حقيقته صعب، لأن ألوان المعاني تتقارب جدا وهي متغايرة، ولابد من تفرسها تفرسا ينفذ إلى مُسْتسرِّها حتى لا يختلط عليه المشتبه وإن تقارب، وقد يرى المعنى مكررا وهو غير مكرر، لأن الأصل الذي امتد منه في الصورة المكررة مختلف عن الأصل الأول، وليس أدق في دراسة الأدب والكلام من تأمل المعاني، ومحاولة السيطرة عليها، ودرسها، والتعرف على مكوناتها، وعناصرها، وأصولها، وفروعها[1].

---

(١) ينظر من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب- د/ محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة- ط٢- ١٩٩٦م. ص ٢٥، ٢٦ باختصار

من هنا كان لزاما على البحث أن يكون المبحث الأول في فهم مقتضيات السورة وبيان موقعها بين سور القرآن، وإجلاء السر وراء ورودها أكثر من مرة، ولم انفردت بسورة وقد سبقت الإشارة للقصة في غير موضع، كل هذا لبيان وفهم المعنى القرآني في سياقه الصحيح.

كما أن المجتنى من التدبر في سياق السورة هو المعنى القرآني، الذي بتحققه يتحقق الكثير من المعاني الإحسانية، التي يحتاجها كل فرد مسلم، فهما وسلوكا، ولهذا يمكن أن يُعرّف المعنى القرآني بأنه: "كل ما يدركه ويستنبطه أهل العلم من النص في سياق السورة المقالي والمقامي وفقا لأصول وضوابط الفهم والاستنباط"(١).

وكل معنى قرآني في كل سورة ولا سيما المعنى الكلي، والغرض الرئيس للسورة، وثيق الصلة والتعلق والانتساب إلى فاتحة الكتاب. " ولكل سورة موقع على مَدْرَجَة سياق المعنى الكلي للقرآن الكريم، وهي مدرجة متصاعدة، لأن المعنى القرآني في حركة نماء متكامل، فكل سورة تتلو الأخرى، ويكون فيها من المعاني الكلية والجزئية ما هو مؤكد لما سبق تأسيسه في السابق، وتأسيس ما هو مكمّل لما سبقه، حتى يصل المعنى القرآني إلى ذروته في سورة الإخلاص والمعوذتين"(٢).

و المعنى القرآني في أي سورة بل في أي آية قائم على أمرين رئيسين لا يفترقان أبدا، ولا تجد معنى قرآنيا لأي آية إلا وهذان قائمان فيه، أو قل هو

---

(١) العزف على أنوار الذكر – د/ محمود توفيق سعد – ط١ – ١٤٢٤هـ ص ١٧

(٢) العزف على أنوار الذكر. ص ٣٠ بتصرف

قائم منهما، لا يستقيم البتة أن يستنبط ناظر في آية من آيات القرآن الكريم، إلا وما يستنبطه من المعنى قائم من هذين، فهما عماد كل معنى قرآني، **الأمر الأول**: جلال الألوهية. **والأمر الثاني**: جمال الربوبية.

فالأول يقيم المتلقي في مقام العبودية الراهبة المخبتة الخاشعة القانتة، والثاني يقيم العبد في مقام الرجاء واليقين بواسع مغفرته ورحمته[١].

والمتأمل لسورة نوح يجد أنها قد تعانق فيها المعنيان، إذ انفردت من بين مواطن قصة نوح بنداء الرب أربع مرات على لسان نوح عليه السلام، مع تعداد النعم ومظاهر جمال الربوبية، التي في طياتها جلال الألوهية، ثم ينعكس الوضع في آخر السورة، حين يتجلى جلال الألوهية في الدعاء على الظالمين بالهلاك والفناء والبوار.

وعلاقة سورة نوح بفاتحة الكتاب في قوله تعالى ({اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٦، ٧]. فإن قوم نوح عيه السلام لما جاءهم الهدى، واستمر دعاؤهم إليه مئات السنين، ما غيّر ذلك من واقعهم شيئا؛ لأن الهداية من الله، وهي مطلب المسلم في كل قراءة لفاتحة الكتاب.

والحديث الآن عن السياق المقامي للسورة من حيث موقع السورة بين سور القرآن وترتيب نزولها وسبب تكرار القصة. وعلاقة مطلع السورة بمقصدها

---

(١) ينظر أسرار البلاغة القرآنية في سورة تبت يدا أبي لهب- د/ محمود توفيق سعد- مكتبة وهبة- ط١ - ٢٠١٧م. ص ٣٦، ٣٧ باختصار.

وختامها وبما قبلها وما بعدها. وما انفردت به من مفردات وسر نظمها وتفردها في هذه السورة.

أما من حيث موقع السورة في المصحف وترتيب نزولها[١]: فسورة نوح سورة مكية، توافق ترتيب نزولها وترتيبها في المصحف، فهي الحادية والسبعون نزولا وترتيبا، نزلت بعد النحل، وجاءت بعد المعارج في ترتيب المصحف، ووليتها سورة الجن، وتتضح مناسبتها بما قبلها وما بعدها في أنه سبحانه لما أمر نبيه – صلى الله عليه وسلم – بالصبر وجليل الإغضاء في قوله: {فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا} [المعارج: ٤٢] أتبع ذلك بذكر قصة نوح عليه السلام، وتكرر دعاء قومه إلى الإيمان وخص من خبره حاله في طول مدة التذكار والدعاء لأنه المقصود في الموضع؛ تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم وليتأسى به في الصبر والرفق في الدعاء، كما قيل له صلى الله عليه وسلم في غير هذا الموضع {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} [الأحقاف:٣٥] {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨] فقد دام دعاء نوح قومَه أدوم من مدتك ومع ذلك فلم يزدهم إلا فرارا (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ

---

(١) ينظرالبرهان فى تناسب سور القرآن– أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (المتوفى: ٧٠٨هـ– ت: محمد شعباني– وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب– ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م. ص ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩ باختصار. والنظم الفني في القرآن للشيخ عبد المتعاال لصعيدي– مكتبة الآداب.ص ٣٢٨.

وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثم مضت أي السورة على هذا المنهج من تجديد الإخبار بطول مكابدته عليه السلام وتكرار دعائه، فلم يزدهم ذلك إلا بعدا وتصميما على كفرهم حتى أخذهم الله وأجاب فيهم دعاء نبيه نوح عليه السلام "رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا.

وذلك ليأسه من فلاحهم، وفي هذا حض نبينا – صلى الله عليه وسلم – على الصبر على قومه والتحمل منهم كما صرح به في قوله: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ} [القلم: ٤٨] {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ } [هود: ١٢٠].

ولما تقدم ذكر حال كفار قريش في تعاميهم عن النظر، وجريهم في اللدد والعناد حسبما انطوت عليه سورة "ن والقلم "، ثم اتبعت بوعيدهم في الحاقة وقرب وقوعه في المعارج، ثم تسليته عليه الصلاة والسلام وتأنيسه بقصة نوح مع قومه أعقب ذلك بما يتعظ به الموفق ويعلم أن القلوب بيد الله، فقد كانت استجابة معاندى قريش والعرب أقرب في ظاهر الأمر لنبي من جنسهم ومن أنفسهم، فقد تقدمت لهم معرفة صدقه وأمانته، ثم جاءهم بكتاب بلسانهم الذى به يتحاورون ولغتهم التى بها يتكلمون، فقد بهرت العقول آياته، ووضحت لكل قلب سليم براهينه ومعجزاته، وقد علموا أنهم لا يقدرون على معارضته إلى ما شاهدوه من عظيم البراهين، ومع ذلك عموا وصموا، وسبق إلى الإيمان من ليس من جنسهم ولا سبقت له مزية تكريمهم، وهم الجن ممن سبقت لهم من الله الحسنى فآمنوا وصدقوا، وأمر – صلى الله عليه وسلم – بالإخبار بذلك فأنزل عليه "قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ

اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ".. إلى قوله إخبارا عن تعريف الجن سائر إخوانهم بما شاهدوه من عناد كفار العرب "وَأَنَّهُ لمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا" سورة الجن (١٩) ثم استمرت الآى ملتحمة المعاني معتضدة المباني إلى آخر السورة.

ولكل سورة **معان كلية ومعان جزئية، المعاني الكلية** وهي الموضوعات التي تعالجها السورة، وترتبط ارتباطا وثيقا بأول القرآن (فاتحة الكتاب). **والمعاني الجزئية** وهي معاني الجمل والآيات في كل مقطع من السورة، حتى ختامها.

وفهم المعنى القرآني المراد من السورة، وتدبر معانيها الكلية والجزئية في إطار السياق المقامي والمقالي، باب من أبواب البلاغة العالية، التي هي من الخطر بمكان، وإن كانت غير مندرجة تحت مصطلح بلاغي، أو لون بياني، لأنها تتعلق تعلقا وثيقا بفهم المعاني والعلاقات فيما بينها.

والسورة التي بين أيدينا سورة انفردت بذكر قصة واحدة، ولا يضاهيها في هذا إلا سورة يوسف، والتي لم تذكر إلا في السورة المسماة باسمه، لكن السورة محل البحث سبق ذكر فصول من القصة على مدار ست سور، علاوة على تكرر ذكر اسم نوح والإشارة إلى عاقبتهم فيما يزيد على العشرين سورة، كما سبقت الإشارة في التمهيد لهذا البحث، فلماذا كان لهذه القصة التفرد بسورة وحدها دون باقي قصص الأنبياء والرسل الذين تعدد ذكر قصصهم على مدار القرآن الكريم؟ ولم تكن كسورة يوسف التي انفردت بسورة ولم يأت لها ذكر خارج تلك السورة؟

لعل السبب – والله أعلم – ما لقصة شيخ الأنبياء والمرسلين نوح عليه السلام من عبر وعظات أراد الله عز وجل أن يتأسى بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فلم يشر القرآن الكريم لعمر دعوة إلى الله بمقياس الزمن غير دعوة نوح عليه السلام، إذ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وهو في مقياس أعمار أمة خاتم المرسلين تساوي الكثير، فأراد المولى عز وجل أن يصور قدر الصبر والجلد والتحمل للصدود والنكران والتكذيب لدعوة الحق، فكان هذا النبي والرسول من أولى العزم من الرسل (نوح عليه السلام) أولى بأن يكون هو المثل والقدوة التي تحتذى.

كما أنه " لما ختمت «سأل» (المعارج) بالإنذار للكفار، وكانوا عباد أوثان، بعذاب الدنيا والآخرة، أتبعها أعظم عذاب كان في الدنيا في تكذيب الرسل بقصة نوح عليه السلام، وكان قومه عباد أوثان، وكانوا يستهزئون به وكانوا أشد تمرداً من قريش وأجلف وأقوى وأكثر، فلم ينفعهم شيء من ذلك عند نزول البلاء وبروك النقمة عليهم وإتيان العذاب إليهم، وابتدأها بالإنذار تخويفاً من عواقب التكذيب به، فقال مؤكداً لأجل إنكارهم أن يكون الرسول بشراً، أو لتنزيلهم منزلة المنكرين من حيث أقروا برسالته وطعنوا في رسالة غيره مع المساواة في البشرية"[1]. ولعل هذا يعدَ سببا آخر لانفراد القصة بسورة وحدها رغم تكرر الإشارة لها في مواطن أخر.

---

(١) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – للإمام البقاعي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط٢ – ٢٠٠٦م .المجلد الثامن – ١٢٦

ومقصود سورة نوح: الدلالة على القدرة، على ما أنذر به آخر سورة "سأل" (المعارج)، من إهلاك المنذرين، وتبديل خير منهم، ومن القدرة على إيجاد القيامة، الذي طال إنذارهم به، وهم عنه معرضون، وبه مكذبون.

وتسميتها بنوح عليه السلام، أدل ما فيها على ذلك، فإن أمره في إهلاك قومه بسبب تكذيبه في ذلك مشهور، ومقصوص في غير ما موضع ومذكور. وتقرير أمر البعث في قصته في هذه السورة مقرر ومسطور[1].

فقصص المرسلين ليس مقصودا في ذاته بقدر ما هو وسيلة لبيان المقصود الأعظم من القرآن كله والذي تفصح عنه كل سورة بالعناصر الواردة فيها.

وقد بدئت سورة نوح ببراعة استهلال دلت على المقصود، فكانت من السور المفتتحة بالجملة الخبرية، وهي هنا جملة خبرية مؤكدة تدل على تحقق وقوع المخبر عنه.

وهي[2] تصف تجربة من تجارب الدعوة في الأرض وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية ، وشوطا من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل. هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة ، الضالة ، الذاهبة وراء القيادات المضللة ، المستكبرة عن الحق ، المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان ،

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للإمام البقاعي- مكتبة المعارف – الرياض- ط١ - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م . (٣/ ١٢٤)

(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب- دار الشروق- القاهرة. (٦/ ٣٧٠٦)

المعروضة أمامها في الأنفس والآفاق، المرقومة في كتاب الكون المفتوح، وكتاب النفس المكنون. وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية اللهّ لهذا الكائن الإنساني، وعنايته بأن يهتدي. تتجلى هذه العناية في إرسال الرسل تترى إلى هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدى، ثم هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني، والعناء المرهق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم من جانب الرسل – صلوات اللهّ عليهم – لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة. وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية، ولا مكافأة ولا جُعْل يحصلونه على حصول الإيمان! كالمكافأة أو النفقة التي تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون، في زماننا هذا وفي كل زمان في صورة نفقات للتعليم! هذه الصورة التي يعرضها نوح – عليه السلام – على ربه، وهو يقدم له حسابه الأخير بعد ألف سنة إلا خمسين عاما قضاها في هذا الجهد المضني، والعناء المرهق، مع قومه المعاندين، الذاهبين وراء قيادة ضالة مضللة ذات سلطان ومال وعزوة. وهو يقول: رَبِّ. إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً. وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ، وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً. فَقُلْتُ: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ، إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً. ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً؟ وَقَدْ

خَلَقَكُمْ أَطْواراً؟ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً؟ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً؟ وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً. وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً، لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً» .. ثم يقول بعد عرض هذا الجهد الدائب الملح الثابت المصر: «رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي، وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَساراً. وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً. وَقالُوا: لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ، وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً ...» .. وهي حصيلة مريرة. ولكن الرسالة هي الرسالة! هذه التجربة المريرة تعرض على رسول اللهّ - صلى اللهّ عليه وسلم - وهو الذي انتهت إليه أمانة دعوة اللهّ في الأرض كلها في آخر الزمان، واضطلع بأكبر عبء كلفه رسول .. يرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل، لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض. ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق وفساد القيادة الضالة وغلبتها على القيادة الراشدة. ثم إرادة اللهّ في إرسال الرسل تترى بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدي جدها نوح عليه السلام. كما تعرض على الجماعة المسلمة في مكة، وعلى الأمة المسلمة بعامة، وهي الوارثة لدعوة اللهّ في الأرض، وللمنهج الإلهي المنبثق من هذه الدعوة، القائمة عليه في وسط الجاهلية المشتركة يومذاك، وفي وسط كل جاهلية تالية .. ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبي البشرية الثاني. كما ترى فيها عناية اللهّ بالقلة المؤمنة، وإنجائها من الهلاك الشامل في ذلك الحين. وهي بهذا تعرض على المشركين مصير أسلافهم المكذبين ليدركوا نعمة اللهّ

عليهم في إرساله إليهم رسولا رحيما بهم ، لا يدعو عليهم بالهلاك الشامل وذلك لما قدره اللهّ من الرحمة بهم وإمهالهم إلى حين. فلم تصدر من نبيهم دعوة كدعوة نوح ، بعد ما استنفد كل الوسائل ، وألهم الدعاء على القوم بما ألهم :«وَلا تَزِدِ الظَّالمِينَ إِلَّا ضَلالًا» .. «وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً» .. ومن خلال عرض هذه الدعوة الإلهية التي تتابعت على البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها، وتأصل جذورها. كما يتجلى ارتباطها بالكون وبإرادة اللهّ وقدره ، وأحداث الحياة الواقعة وفق قدر اللهّ.

وإن الإنسان لتأخذه الدهشة والعجب ، كما تغمره الروعة والخشوع ، وهو يستعرض – بهذه المناسبة – ذلك الجهد الموصول من الرسل – عليهم صلوات اللهّ وسلامه – لهداية البشرية الضالة المعاندة. ويتدبر إرادة اللهّ المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل واحدا بعد واحد لهذه البشرية المعرضة العنيدة. ومن هنا تتضح فوائد القصص القرآني، الذي لم يكن مقصودا لأجل السرد والتسلية، بقدر ما كان وسيلة للمقصود الأعظم من السورة ومن القرآن وهو الدلالة على قدرة الله التي لا يحدها حد، ولا يستطيع كافر جاحد أن يعاندها مهما كانت قوته وتجبره، فكما أهلك البشرية في زمن نوح عليه السلام، قادر على استبدال من عصاه وعانده وجحد بدعوة نبيه.

وختام السورة بالدعاء على الكافرين بالهلاك والدمار والفناء، عود على بدء ومناسب لما افتتحت به السورة من الإنذار، واستدلال على قدرة المنذر

سبحانه على إيقاع ما أنذر به، فقد انطبق الآخر على الأول على أصرح وجه وأكمل وأحسن حال وأجمل منال.

وقد انفردت السورة في سياقها بذكر مفردات تعد فرائد لهذه السورة دون سواها، فلم تأت تلك المفردات إلا هنا. وكلها جاءت مؤدية للمعنى المراد من السياق المقامي والمقالي معا، كما ساعدت على تأدية الغرض من القصة القرآنية في السورة. وساعدت في تصوير نفسية الداعي من قبل الله حينما يجابه رفضا غير منطقي، وتعنتا في الإجابة دون داع أو سبب سوى الانسياق وراء الرغبات واتباع الأهواء، ووساوس الشيطان.

وهذه المفردات: (استغشوا- جهارا- وقارا- أطوارا- كبارا- ديارا- تبارا) ساعدت على استيفاء أغراض القصة القرآنية هنا بصفة خاصة، علما بأن هذه الأغراض في مجملها تهدف إلى أهداف تربوية وتوجيهية للطريق المستقيم.

ومن أهم أغراضها: إثبات الوحي والرسالة، والدعوة إلى الصبر والثقة في الله، والترغيب والترهيب، وبيان وحدة الرسالة والدعوة من لدن آدم إلى خاتم المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام. كما أنها تصور وحدة المعارضة لدعوة الله منذ بدء الخليقة، وتبين القصة القرآنية مؤازرة الله لأنبيائه وأصفيائه، وتدعو إلى التدبر والتفكر وإعمال العقل، وتحذر من الغواية واتباع الشيطان، علاوة على الأهداف الفرعية المنبثقة من الأغراض الرئيسة لقصص القرآن، فهي تعلّم أدب الحوار والمناقشة مهما غلظ الكفار المكذبون، وتصور الذوق والرقة والتلطف في حوارات المرسلين. كما أنها

تتصل اتصالا وثيقا بالتوحيد والإيمان السليم، وذلك بالتوكل على الله والاعتزاز به، وهي في عرضها القرآني تحقق الأسوة الصالحة والقدوة الطيبة، وتملأ النفس المطمئنة بالعزة بالله، واللجوء إلى حماه، كما في توكل نوح عليه السلام، وطول صبره وتحمله لقومه قرابة الألف سنة[١].

والقصص القرآني تراوح العرض فيه من حيث الأحداث بين الطول والتوسط والقصر، فهناك قصص فيها تفصيل لمراحل كثيرة، فتعرض حلقات القصة منذ الميلاد، كقصة آدم عليه السلام، وموسى عليه السلام، وأخرى تعرض من زمن متأخر نسبيا فتبدأ القصة والبطل صبيا، كقصة يوسف عليه السلام، وأخرى لا تعرض إلا في حلقة متأخرة جدا وهي كقصص نوح وهود وصالح، وغيرهم، فلا تعرض من حياتهم إلا مرحلة الدعوة، لأنها هي التي تحمل العبرة والعظة والدرس المستفاد.

كذلك من حيث الإيجاز والإطناب، تجد قصة كقصة موسى عليه السلام جاءت في صورة إطناب بديع، ذكر كل حوادث القصة على مراحل مختلفة، وحلقات متتالية، وقصة أخرى تأتي متوسطة في عرضها بين الإيجاز والإطناب كقصة نوح عليه السلام، حيث استلزم سياقها والغرض من ذكرها أشياء بعينها، وتفصيلات بذاتها فكانت بين الطول والقصر. وهناك قصص متناهية في القصر كقصة يحيى وزكريا عليهما السلام. والخلاصة أن القارئ

---

(١) الإعجاز القصصي في القرآن –د/ سعيد عطية علي مطاوع- دار الآفاق العربي- ط١- . ٢٠٠٦م. ص١١٨ : ١٣١ بتصرف.

لقصص القرآن يجد التوجيهات الإلهية منثورة في ثناياها، سواء طالت القصة أو قصرت، وسواء تعددت حلقاتها أو قلت، لأن المراد منها جميعا تحقيق المقصود الأعظم والهدف الأساس من ذكرها. فهي وسيلة وليست غاية في ذاتها[1].

وبراعة الختام في قوله تعالى: "وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)

إن الذي يراجع حياة نوح معه قومه، وهذا الأمد الطويل الذي قضاه بينهم، وهو كما يقول القرآن الكريم ألف سنة إلا خمسين عاما، لم يدع فيها نوح لحظة إلا واجه فيها قومه، ولا طريقا إلا سلكه إليهم- ومع هذا فإن القوم لم يزدادوا إلا سفها وضلالا، وإلا مبالغة في الكيد له، والعدوان عليه، حتى لقد فتنوا فيما فتنوا امرأته، وولده، وهذه أعظم بلية يبتلى بها صاحب دعوة في محاربة دعوته، إذ يقوم منها أبلغ شاهد على خذلانه وإبطال حجته على الناس لما يدعوهم إليه..

(١) ينظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب- دار المعارف. ص١٣٠: ١٤٠ بتصرف واختصار

إن الذي يراجع هذا الموقف بين نوح وقومه، يجد أن نوحا عليه السلام، كان أكثر أنبياء الله صبرا وحلما، واحتمالا.. فما من نبي ظل في موقف الدعوة، يحارب أهل الضلال مثل هذا الأمد الطويل الذي وقفه نوح عليه السلام.. ولهذا كان عليه السلام واحدا من أولى العزم من رسل الله، عليهم صلوات الله، ورحمته، وبركاته[١].

(١) التفسير القرآني للقرآن- عبد الكريم يونس الخطيب - دار الفكر العربي – القاهرة (١٥/ ١٢٠٧)

المبحث الثاني: الإعجاز القصصي في السياق المقالي في السورة

إن السياق المقالي الذي يبحث في تراكيب السورة وجملها، وآياتها، وما تحمله من علاقات بين المعاني، وما يظهر من نظمها، وما يتلألأ بين جنباتها من ألوان بلاغية ساعدت على ظهور المعنى، ووصوله عقل وقلب المتلقي.

ولا يمكن ادعاء الوصول لغاية الأسرار وكامل المعنى وراء النص هنا في محاولة لسبر غوره، وتحليل بلاغته، فبلاغة القرآن لا تدرك ولا يمكن حدها، وهو كلام الله الذي لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وسيظل بحرا لا شطآن لمعانيه، ومحيطا عميقا لمن أراد سبر غور أسراره ومراميه.

وحتى لا تضيع الفائدة، وتتجزأ الوحدة الموضوعية للسورة فسيكون تحليل السورة على مقاطع، مبينة أهم ألوان البلاغة التي ساعدت على استجلاء المعنى ووضوح الصورة.

١- قال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)} [نوح: ١ - ٥]

التحليل البلاغي:

تبدأ السورة بتقرير، مصدر الرسالة والعقيدة، وتوكيده: «إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ» .. فهذا هو المصدر الذي يتلقى منه الرسل التكليف، كما يتلقون حقيقة العقيدة.

والحالة التي كان قوم نوح قد انتهوا إليها ، من إعراض واستكبار وعناد وضلال – كما تبرز من خلال الحساب الذي قدمه نوح في النهاية لربه – تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته وأول ما يفتتح به الدعوة لقومه ، الإنذار بعذاب أليم ، في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما جميعا[١] .

بدأت السورة الكريمة بجملة خبرية مؤكدة تفيد تحقق الخبر ووقوعه، والخبر مادة يمكن أن تتشكل بأشكال أو أصل يتصور بصور، فيكون في الأشكال والصور ما يتفاضل به الكلام[٢] .

والهدف الأعم هنا التدليل على كمال قدرة الله، الذي بيده كل شيء، وقادر على أن يزيل من خالفه وعصاه، فأمره بين الكاف والنون، فكما أمر الأرض والسماء فأطاعتا واختفي من على الأرض إلا من ركب السفينة مع نوح، فهو سبحانه قادر على أن يمحو من ينابذه الكفر والجحود والعصيان.

ومن مشهد التكليف ينتقل السياق مباشرة إلى مشهد التبليغ في اختصار، البارز فيه هو الإنذار، مع الإطماع في المغفرة على ما وقع من الخطايا والذنوب وتأجيل الحساب إلى الأجل المضروب في الآخرة للحساب وذلك مع البيان المجمل لأصول الدعوة التي يدعوهم إليها :
قالَ : يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ.

---

(١) في ظلال القرآن ـ لسيد قطب– دار الشروق. (٦/ ٣٧١٠)

(٢) ينظر دلائل الإعجاز– للإمام عبد القاهر الجرجاني– مكتبة المدني– القاهرة. ص ١١٧، ١١٨.

إِنَّهُ أَمَرَ الْقَوْمَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ بِعِبَادَةِ اللهَّ وَتَقْوَاهُ وَطَاعَةِ نَفْسِهِ، فَالْأَمْرُ بِالْعِبَادَةِ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْوَاجِبَاتِ وَالمَنْدُوبَاتِ مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ وَأَفْعَالِ الجُوَارِحِ، وَالْأَمْرُ بِتَقْوَاهُ يَتَنَاوَلُ الزَّجْرَ عَنْ جَمِيعِ المَحْظُورَاتِ وَالمَكْرُوهَاتِ، وَقَوْلُهُ: وَأَطِيعُونِ يَتَنَاوَلُ أَمْرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَجَمِيعَ المَأْمُورَاتِ وَالمَنْهِيَّاتِ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللهَّ وَتَقْوَاهُ، إِلَّا أَنَّهُ خَصَّهُ بِالذِّكْرِ تَأْكِيدًا فِي ذَلِكَ التَّكْلِيفِ وَمُبَالَغَةً فِي تَقْرِيرِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى لمَّا كَلَّفَهُمْ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ وَعَدَهُمْ عَلَيْهَا بِشَيْئَيْنِ أَحَدُهُمَا: أَنْ يُزِيلَ مَضَارَّ الْآخِرَةِ عَنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ: يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ الثَّانِي: يُزِيلُ عَنْهُمْ مَضَارَّ الدُّنْيَا بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ، وَذَلِكَ بأن يؤخر أجلهم إلى أقصى الإمكان[1].

{ قال يا قوم } ، أضافهم إلى نفسه إظهاراً للشفقة { إني لكم نذير مبينٌ } ؛ مُنذِر موضّح لحقيقة الأمر ، أُبين لكم رسالة ربي بِلُغةٍ تعرفونها ، { أنِ اعبدُوا اللهَ } أي : وحّدوه و{ واتقوه}؛ واحذروا عصيانه، { وأطيعونِ } فيما آمركم به وأنهاكم عنه ، وإنما أضافه إلى نفسه؛ لأنَّ الطاعة تكون لغير الله بخلاف العبادة ، وطاعته هي طاعة الله[2] .

وإضافة (قوم) إلى ضمير) نوح (لأنه أرسل إليهم فلهم مزيد اختصاص به ، ولأنه واحد منهم وهم بين أبناءٍ لَه وأنسباءٍ، فإضافتهم إلى ضميره تعريف

---

(١) مفاتيح الغيب – التفسير الكبير لفخر الدين الرازي -دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط٣- ١٤٢٠ هـ (٣٠/ ٦٤٩)

(٢) البحر المديد ـ تفسير ابن عجيبة- دار الكتب العلمية ـ بيروت- ط٢/ ٢٠٠٢ م ـ ١٤٢٣ هـ (١٤/ ٤١٧)

لهم، إذ لم يكن لهم اسم خاص من أسماء الأمم الواقعة من بعد. وعُدل عن أن يقال له : أنذر الناس إلى قوله : (أنذر قومك (إلهاباً لنفس نوح ليكون شديد الحرص على ما فيه نجاتهم من العذاب ، فإن فيهم أبناءه وقرابته وأحبته ، وهم عدد تكوّن بالتوالد في بني آدم في مدة ستمائة سنة من حلول جنس الإنسان على الأرض . ولعل عددهم يوم أرسل إليهم نوح لا يتجاوز بضعة آلاف. وتقديم (لكم) (على عامله وهو (نذير) للاهتمام بتقديم ما دلت عليه اللام من كون النذارة لفائدتهم لا لفائدته [١].

والتأكيد سمة واضحة وعلامة بارزة في السورة الكريمة، فافتتاح السورة بالتوكيد للاهتمام بالخبر إذ ليس المقام لرد إنكار منكر، ولا دفع شك عن متردد في هذا الكلام . وكثيراً ما يَفتتح بلغاء العرب أول الكلام بحرف التوكيد لهذا الغرض. كما جمع نوح عليه السلام في صدر دعوته (يا قومي إني لكم نذير مبين) خمسة مؤكدات ، وهي : النداءُ وجعلُ المنادَى لفظ (يا قومي) المضاف إلى ضميره ، وافتتاحُ كلامه بحرف التأكيد ، واجتلابُ لام التعليل ، وتقديمُ مجرورها. كذلك افتتاح دعوته قومَه بالنداء؛ لطلب إقبال أذهانهم، ونداؤهم بعنوان : أنهم قومه، تمهيد لقبول نصحه إذ لا يريد الرجل

(١) التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية (٢٩/ ١٨٨،١٨٩)، وينظر دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم دراسة تحليلية- د/ منير محمود المسيري- مكتبة وهبة- ص٦٦٩.

لقومه إلاّ ما يريد لنفسه . وتصدير دعوته (إني لكم نذير مبين) بحرف التوكيد لأن المخاطبين يترددون في الخبر[١].

وبراعة الاستهلال هنا تكمن في ذكر فعل الإرسال مسندا لضمير العظمة،، مع تأكيد الجملة للاعتناء بأمر إرساله عليه السلام. ووقوع الأمر بعد التوكيد والنداء، إيقاظ للعقل، والوجدان، وتنبيه أن الغاية من إرسال الأنبياء والرسل عليهم السلام هو الإيمان بالله وعبادته وحده[٢].

ويلاحظ أن نوحا عليه السلام، قال: يا قوم إني لكم نذير مبين... بدأ التنفيذ فنادى للتنبيه وإيقاظ العقول، وعبر بالقوم للتودد وإظهار الحرص على المنفعة، فكأنه يخبرهم قائلا:أنا لا أريد بدعوتي لكم إلا المنفعة العاجلة والآجلة. فبدأ بالتكليف (اعبدوا الله- اتقوه- أطيعوني) ورتب على التكليف جزاء (يغفر لكم من ذنوبكم- يؤخركم إلى أجل تنالون فيه الخير) ثم دلل على أنه أحق أن يتبع، وأولى بأن يستجاب لدعوته؛ فعدد بعضا من النعم، وكلها نعم ظاهرة، لا ينكرها منكر، ولا يجحدها عاقل.

---

(١) التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور- دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧ م. (٢٩/ ١٨٦، ١٨٨)

(٢) ينظر حسن الابتداء في سور القرآن الكريم- د/ عبد المجيد عبد المجيد هنداوي ـ ١٩٩٩م. ص٨٦ باختصار.

قال تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا} [نوح: ٥ - ٢٠]

التحليل البلاغي:

هذا ما صنع نوح وهذا ما قال، عاد يعرضه على ربه، وهو يقدم حسابه الأخير في نهاية الأمد الطويل. وهو يصور الجهد الدائب الذي لا ينقطع: «إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهاراً» [(١)]..

فاتجه بعد تكذيبهم بشكواه إلى ربه، فناداه سبحانه بالرب، وهو المصلح والمربي والقائم على الأمر، ليستشعر جمال الربوبية مع جلال الألوهية الكامنة في أساليب الإنذار، ليتعانق جلال الألوهية مع جمال الربوبية كما هو دأب سور القرآن الكريم.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧١٢)

ونـداء (رب) اختـصرت ذلـك الاختـصار بـأن حـذفت كلمـة النـداء وهـي يـا وحذفت كلمة المضاف إليه وهي ياء المتكلم واقتصر من مجموع الكلمات على كلمة واحدة فحسب وهي المنادى والمقدمة للكلام كما لا يخفي عـلى من له قدم صدق في نهج البلاغة، فهـي نازلـة منزلـة الأسـاس للبنـاء فكـما أن البناء الحاذق لا يرمى الأساس إلا بقدر ما يقدر من البناء عليه كـذلك البليـغ يصنع بمبدأ كلامه، فمتى رأيته اختصر المبدأ فقد آذنك باختصار ما يورد، ثم إن الاختصار لكونه من الأمور النسبية يرجع في بيان دعواه على ما سبق تـارة وعلى كون المقام خليقا بأبسط مما ذكر أخرى[١].

أي:رب إني دعوت قومي إلى الإيمان والطاعة ليلا ونهارا، أي دائما من غـير فتور ولا توان، فلم يزدهم دعائي إلا فرارا ممـا دعـوتهم إليـه، وإسـناد الزيـادة إلى الدعاء لسببيتها،(فهو مجاز عقلي علاقتـه الـسببية) وإني كلـما دعـوتهم إلى الإيمان لتغفر لهم بسببه جعلوا أصابعهم في آذانهم، أي سدوا مـسامعهم من استماع الدعوة، (والتعبير بالأصابع والمراد الأنملة مجـاز مرسـل علاقتـه الكلية) مبالغة في الإعراض.

واستغـشوا ثيـابهم، أي: بـالغوا في التغطـي بهـا كـأنهم طلبـوا أن تغـشاهم ثيابهم أو تغشيهم لئلا يبصروا؛ كراهة النظر إليـه، أو لـئلا يعـرفهم فيـدعوهم. وقد ذكر صاحب الإعراب أن في قوله (استغشوا ثيابهم) كنايـة عـن المبالغـة

(١) مفتـاح العلـوم للـسكاكي- علـق عليـه: نعـيم زرزور- ط٢- دار الكتـب العلميـة، بيروت –لبنان ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م (ص: ٢٨٧)

في إعراضهم عما دعاهم إليه[١]. والكناية وادٍ من أودية البلاغة، ومقتل من مقاتل البيان العربي، والكناية في القرآن الكريم فيها من روعة البيان و جمال التصوير، ما لا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن، وأدرك ما احتجب خلف الأستار[٢].

وأصروا أي: أكبوا على الكفر والمعاصي، والإصرار : من أصرّ الحمار على العانة إذا صرّ أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها: استعير للإقبال على المعاصي والإكباب عليها)[٣] و السر في جمال الاستعارة في القرآن الكريم يرجع إلى ما امتازت به من خصائص فنية، ليست لها في غير القرآن، وأن من يمعن النظر يرى أن هذه الخصائص تكمن في حسن التصوير، والإيضاح، والإيجاز، واختيار الألفاظ، وحسن التركيب، ومراعاة حسن التشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة. كما أن الباحث إذا أمعن النظر في ألفاظ القرآن استبان له أنها مع إيحائها متناسبة مؤتلفة مع بعضها ومع معانيها[٤].

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحي الدين الدرويش- دار ابن كثير- ط٣- ١٩٩٢م. ج١٠/ ٢٢٤.

(٢) ينظر الأسلوب الكنائي نشأته- تطوره- بلاغته- -د/ محمود السيد شيخون- ط١- مكتبة الكليات الأزهرية-١٩٧٨م. ص ٨٧، ١٠١. بتصرف

(٣) (٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/ ٤٤٣، ٤٤٤)

(٤) الاستعارة. نشأتها. تطورها. أثرها في البلاغة العربية- محمود السيد شيخون- ط١- دار الطباعة المحمدية- ١٩٧٧م. ص٩٣

وقـد بـدأ بـذكر عاقبـة التوبـة في الآخـرة، لأنـه هـو المقـام الأشرف والغايـة العظمى في قوله (إنه كان غفارا)، ثـم ثنى بـذكر عاقبـة الاسـتغفار في الـدنيا، وبدأ بالأهم وهو الماء الذي به حياة كل شيء[١].

و لما دل على كمال علمه وتمام قدرته بخلق الإنسان ثم بخلق ما هو أكـبر منه أعاد الدلالة بخلق الإنسان لأنه أعظم المحدثات وأدلها على الله سبحانه وتعالى على وجه آخر مبين لبعض ما أشار إليه الأول من التفصيل مصرحاً بالبعث فقال مستعيراً الإنبات للإنشاء: {والله} أي الملك الأعظم الذي لـه الأمر كله {أنبتكم} أي بخلق أبيكم آدم عليه الصلاة والسلام {من الأرض} أي كما ينبت الزرع، وعبر بذلك تذكيراً لنا لما كان من خلق أبينا آدم عليه الصلاة والسلام لأنه أدل على الحدوث والتكون من الأرض، وأشار إلى أنه جعل غذاءنا من الأرض التي خلقنا منها، وبذلك الغذاء نمونا[٢]

وَاسْتَكْبَرُواْ أي: أخذتهم العزة من اتباع نوح وطاعته ، وذِكْـر المصدر تأكيدٌ ودلالة على فرط استقبالهم وعتوهم .أي: واستكبروا عن اتباعي وطاعتي، استكبارا شديدا، ثم إني دعوتهم تارة بعد تارة، ومرة غِبّ مرة، على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة، وثم لتفاوت الوجوه فإن الجهار، أشد من الإسرار[٣]. ويلاحظ استعمال الطباق لتزيد الصورة وضوحا لدى المتلقي،

---

(١) دلالات التقديم والتأخير ص٦٦٩.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/ ٤٤٣، ٤٤٤)

(٣) ينظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – لجار الله الزمخشري– دار إحياء التراث (٤/ ٦١٩)، وينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن

ليتشكل في عقله وذهنه مدى المعاناة التي لاقاها نوح من قومه، إذ لم يترك سبيلا لدعوتهم إلا طرقه.

ولما كان الفرار مجازاً عن رد كلامه ، عطف عليه ما يبينه ، فقال مؤكداً: {وإني كلما}، لأن إعراضهم مع هذا الدعاء الطويل مما لا يكاد يصدق على تكرار الأوقات وتعاقب الساعات، {دعوتهم} إلى الإقبال عليك بالإيمان بك والإخلاص لك .{جعلوا} في كل دعاء، ودل على مبالغتهم في التّصامُمِ بالتعبير عن البعض بالكل على سبيل المجاز المرسل، فقال : {أصابعهم} كراهة له واحتقاراً للداعي {في آذانهم} حقيقة لئلا يسمعون الدعاء إشارة إلى أنا لا نريد أن نسمع ذلك منك ، فإن أبيت إلا الدعاء فإنا لا نسمع لسد أسماعنا ، ودلوا على الإفراط في كراهة الدعاء بما ترجم عنه قوله: {واستغشوا ثيابهم} أي أوجدوا التغطية لرؤوسهم بثيابهم إيجاد من هو طالب لذلك شديد الرغبة فيه؛ حتى يجمعوا بين ما يمنع السماع لكلامه والنظر إليه إظهاراً لكراهته وكراهة كلامه. ولما ذكر أنه استعطفهم أولاً ببيان أن رجوعهم ممكن، لئلا يقولوا : إنا قد بالغنا في المعاصي فلا نقبل، وأعلمهم أن الاستغفار باب الدخول إلى طاعة الجبار، أكد ذلك الاستعطاف بقوله معللاً للأمر ولجوابه بنحو : يغفر لكم ، مؤكداً لأجل توقفهم : {إنه

الكريم لأبي السعود – طبعة دار احياء التراث (٩/ ٣٧)،وينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/ ٤٣٠)، ٤٣١.

كان} أي أزلاً وأبداً ودائماً سرمداً {غفاراً} أي متصفاً بصفة الستر على من رجع إليه على أبلغ الوجوه وأعلاها ، وإذا وقع الغفران دفع المضار كلها.[1].

وإن نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى الْعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى وَالطَّاعَةِ لِأَجْلِ أَنْ يُغْفَرَ لهُمْ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ الْأَوَّلَ هُوَ حُصُولُ الْمَغْفِرَةِ، وَأَمَّا الطَّاعَةُ فَهِيَ إِنَّمَا طُلِبَتْ لِيُتَوَسَّلَ بِهَا إِلَى تَحْصِيلِ الْمَغْفِرَةِ، وَلِذَلِكَ لمَّا أَمَرَهُمْ بِالْعِبَادَةِ قال: يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ [نوح: ٤] فَلَمَّا كَانَ الْمَطْلُوبُ الْأَوَّلُ مِنَ الدَّعْوَةِ حُصُولَ الْمَغْفِرَةِ لَا جَرَمَ قَالَ: وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لهُمْ وَاعْلَمْ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا دَعَاهُمْ عَامَلُوهُ بِأَشْيَاءَ:

أَوَّلهُا: قَوْلُهُ: جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ بَلَغُوا فِي التَّقْلِيدِ إِلَى حَيْثُ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ لِئَلَّا يَسْمَعُوا الْحُجَّةَ وَالْبَيِّنَةَ.

وَثَانِيهَا: قَوْلُهُ: وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ أَيْ تَغَطَّوْا بِهَا، إِمَّا لِأَجْلِ أَنْ لَا يُبْصِرُوا وَجْهَهُ كَأَنَّهُمْ لمَ يجُوِّزُوا أَنْ يَسْمَعُوا كَلَامَهُ، وَلَا أَنْ يَرَوْا وَجْهَهُ. وَإِمَّا لِأَجْلِ المُبَالَغَةِ فِي أَنْ لَا يَسْمَعُوا، فَإِنَّهُمْ إِذَا جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ، ثُمَّ اسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ مَعَ ذَلِكَ، صَارَ الْمَانِعُ مِنَ السَّمَاعِ أَقْوَى.

وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ: وَأَصَرُّوا وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ أَصَرُّوا عَلَى مَذْهَبِهِمْ، أَوْ عَلَى إِعْرَاضِهِمْ عَنْ سَمَاعِ دَعْوَةِ الْحَقِّ.

وَرَابِعُهَا: قَوْلُهُ: وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً أَيْ عَظِيمًا بَالِغًا إِلَى النِّهَايَةِ الْقُصْوَى[2].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- للإمام البقاعي -ط٢- دار الكتب العلمية- بيروت ٢٠٠٢م.(٨/ ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٤) بتصرف واختصار

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٦٥١)

وانظر إلى القرآن الكريم وهو يصور حالهم العجيبة حيث يعبر عن عدم سماعهم بأنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، والجعل يقتضي دوام الوضع، والأصابع يفهم منها المبالغة في السد فإن الذي يوضع طرف الإصبع لا الإصبع كله، وانظر إلى قوله (واستغشوا ثيابهم) فإن المعنى أنهم بالغوا في التغطي بها مبالغة كأنهم طلبوا من ثيابهم أن تغشى الجسم كله لا عيونهم فقط.

ولما قدم الجهر لأنه أقرب إلى عدم الاتهام، وكان السر أجدر بمعرفة الضمائر وأقرب إلى الاستمالة، أتبعه به فقال: {وأسررت لهم} أي دعوت كل واحد منهم على انفراده ليكون أدعى له وأجدر بقبوله النصيحة، وأدل على الإخلاص، وكل ذلك ما فعلته إلا لأجل نصيحتهم، لا حظ لي أنا في ذلك، ولما كان تحين الإنسان ليكون وحده ليس عنده أحد ولا هو مشتغل بصارف مما يعسر جداً فلا يكاد يصدق أكده فقال: {إسراراً} وليدل بتأكيده على تأكيد ما قبله من الأفعال، والظاهر من حاله ومن هذا الترتيب مما صرح به من الاجتهاد أنه سار فيه على مقتضى الحكمة، فدعا أولاً أقرب الناس إليه وأشدهم به إلفاً، ثم انتقل إلى من بعدهم حتى عمهم الدعاء، وكانت هذه الدعوة سراً كل واحد منهم على حدته ليعلموا نصحه ولا يحمل الدعاء، وكانت هذه الدعوة سراً كل واحد منهم على حدته ليعلموا نصحة ولا يحمل أحد منهم ذلك على تبكيت ولا تقريع، جهر ليعلموا أنه مُلْجأٌ من الله إلى

ذلك ، وأنها عزمة إن قصروا فيها عن الأجابة عوقبوا ، فلما أصروا جمع بين السر والعلن ، فلما تمادوا وطال الأذى شكى[1] .

إن حرف العطف (ثم) حرف مهلة، يرمز إلى طول المعاناة وشدة التحمل في قوله تعالى على لسان نوح مناجيا ربه، شاكيا إليه سوء ما صنعه قومه: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا} [نوح: ٥ – ٩] فقد استنفد نوح عليه السلام كل فنون الدعوة، وهو ينتقل من طور إلى طور، ولم يتخلل ذلك انقطاع أو فتور، جرّب معهم الإسرار بدعوته، ولم يدخر جهدا في ليل أونهار، فلما أعياه ذلك انتقل إلى المجاهرة وصبر على تكاليفها وتضحياتها، فلم يحقق بها ما أراد، ثم انتقل إلى المزاوجة في دعوته بين الإعلان والإسرار، فما كان ذلك بأسعد حظا من التفرد بالإسرار أو الجهار، وحرف المهلة بين هذه المراحل يمطّ زمن المرحلة قبله، وكأنه يعذر لنبي الله نفاذ صبره مع قومه، فهو لم يتعجل الانتقال من طور إلى طور، بل كان دؤوبا صبورا، يطرق كل باب، ويبذل كل جهد، ألا ترى قوله في الطور الأول (ليلا ونهارا) وقوله (فلم يزدهم دعائي إلا فرارا) مما يدل على مداومة الدعوة وتكرارها، وأنه كلما جدد معهم دعوة، جددوا صدا وكفرانا!

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٢٥٣)

فالتراخي الزمني هو الذي يشعر بطول معاناة نوح وشدة صبره على أذى قومه، وهذا الكلام أولى من القول بالتراخي الرتبي الذي ذهب إليه الزمخشري[١] في قوله: (قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر : في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد ، فافتتح بالمناصحة في السر ، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان . ومعنى) ثُمَّ (الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ؛ والجمع بين الأمرين ، أغلظ من إفراد أحدهما)، فلست أظن أن الجمع بين الإسرار والمجاهرة أغلظ من إفراد المجاهرة، لما هو معلوم من أن المجاهرة بالدعوة تستثير المعاند، وتستنفر حميته، وتدفعه إلى الإغلاظ للداعي، وإيذائه، والتهكم به، فكيف تكون المداومة على المجاهرة أهون من الجمع بينها وبين الإسرار؟

لقد فرّ جار الله إلى القول بالتراخي الرتبي هروبا من حقيقة "ثم" المستوجبة الانقطاع بين أطوار الدعوة، ولكن المباعدة هنا بحرف المهلة منظور فيها إلى بداية المرحلة، وهي طويلة طويلة بالنظر إلى المرحلة التي تليها، وهي وحدها القادرة على نقل الإحساس إلى القارئ بطول المجاهدة وشدة المعاناة، ولو قيل: فدعوتهم جهارا، فأعلنت لهم وأسررت، لضاع ما

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – لجار الله الزمخشري- ت: عبد الرزاق مهدي-دار إحياء التراث العربي- بيروت. (٤/ ٦١٩).

أومأت إليه "ثم" واعتذرت به لنبي الله حين ضاق بهم، وجأر إلى ربه: (رب لا تذر على الأرض من الكافرين .....كفارا)[1].

وقولـه تعـالى : { اسـتغفِروا ربكـم } قـال القـشيري : لـيعلم العـاملون أنَّ الاستغفار قَرْعُ أبوابِ النعمة، ومَن وقعت له إلى الله حاجة فلا يَصِل إلى مـرادِه إلاّ بتقـديم الاسـتغفار . ويقـال : مَـن أراد التفـضُّل فعليـه بالعُـذْر والتنصُّل[2].

ولما قرر أمر التوبة وبين قبولها وقدّمه اهتماماً به لأنه أصل ما يبتنى عليه، ولأن التخلي قبل التحلي، ودرء المفاسد قبل جلب المصالح والفوائد، رغب فيها بما يكون عنها من الزيادة في الإحسان على أصل القبول، وينشأ عن الاستغفار من الآثار الكبار من الأفضال بجلب المسار بما هو مثال للجنة التي كان سبب الإخراج منها النسيان لأنه أحب شيء في الأرباح الحاضرة والفوائد العاجلة لا سيما بما يبهج النفوس ويشرح الصدور لإذهابه البؤس، فقال مجيباً لفعل الأمر: {يرسل السماء} أي المظلة الخضراء أو السحاب أو الغيث {عليكم} أي بالغيث وأنواع البركات {مدراراً} أي حال كونها كثيرة الدورة متكررته، وهذا البناء يستوي فيه المذكر والمؤنث {ويمددكم} أظهر لأن الموضع لإرادة المبالغة والبسط والسعة {بأموال وبنين} وذلك يفهم أن من أكثر الاستغفار حباه الله ما يسره، وحماه ما يضره {ويجعل لكم} أي في

---

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم الفاء- ثم. د/ محمد الأمين الخضري- مكتبة وهبة-ط٢- ٢٠٠٧م. ص ١٧٤، ١٧٥

(٢) البحر المديد ـ تفسير ابن عجيبة (١٤/ ٤١٩)

الـدارين {جنـات} أي بـساتين عظيمـة، وأعـاد العامـل للتأكيـد والبـسط لأن المقام له فقال: {ويجعل لكم أنهاراً} يخصكم بذلك عمـن لـم يفعـل ذلـك، فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضـيق مخرجـاً، إن عمل قوم نوح كان بضد ذلك، كلما ازداد نوح في الـضمان ووجـوه الخـير والإحـسان ازدادوا في الكفـر والنـسيان. ولمـا كـان مـن رجـا ملكـاً عمـل بـما يرضيه. ومن خافه تجنب ما يسخطه، نبههم على ذلك بالإشـارة إلى الجـلال الموجب للتوقير والجمال بالإحسان إلى الخلـق، مـصرحاً لهـم بالترغيـب ملوحاً إلى الترهيب، فقال مستأنفاً في جواب من يقول مـنهم: هـل بقـي شيء من قولك؟ : {ما} أي أيّ شيء يحصل {لكم} حال كـونكم {لا ترجـون} أي تكونون في وقـت مـن الأوقـات عـلى حـال تؤملـون بهـا، وبـيّن فاعـل الوقـار ومبدعه بتقديمه، فإنه لو أخره لكان لـ «وقاراً» فقال: {لله} أي الملك الذي لـه الأمر كله {وقاراً} أي ثواباً يوقركم فيه ولو قل، فإن قليله أكثر من كثير غـيره، ولا تخافون له إهانة بالعقاب بأن تعلموا أنه لا بد من أن يحاسبكم بعد البعث فيثيب الطائع ويعاقب العاصي[1].

والمتأمل يرى أسلوب القرآن يجري على نـسق بـديع خـارج عـن المعـروف من نظام جميع كلام العرب، ويقـوم في طريقتـه التعبيريـة عـلى أسـاس مبـاين للمـألوف مـن طـرائقهم. مـع سـمو في جمـال اللفـظ، وعمـق المعنـى، ودقـة التركيب، ورقة الصياغة، وروعة التعبير، و إذا تأملت في الكلمات التي تتألف منها الجملة القرآنية رأيتها تمتاز بجمال وقعها في السمع، واتـساقها الكامـل

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/ ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠) باختصار

مع المعنى، واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات[١].

ولما دل سبحانه على لسان نوح عليه السلام، على كمال علمه وتمام قدرته بخلق الإنسان ثم بخلق ما هو أكبر منه، أعاد الدلالة بخلق الإنسان لأنه أعظم المحدثات وأدلها على الله سبحانه وتعالى على وجه آخر مبين لبعض ما أشار إليه الأول من التفصيل مصرحاً بالبعث فقال مستعيراً الإنبات للإنشاء: {والله} أي الملك الأعظم الذي له الأمر كله {أنبتكم} أي بخلق أبيكم آدم عليه الصلاة والسلام {من الأرض} أي كما ينبت الزرع، وعبر بذلك تذكيراً لنا لما كان من خلق أبينا آدم عليه الصلاة والسلام لأنه أدل على الحدوث والتكون من الأرض، وأشار إلى أنه جعل غذءانا من الأرض التي خلقنا منها، وبذلك الغذاء نمونا[٢]

وفي قوله (والله أنبتكم من الأرض نباتا) قال البقاعي[٣]: الآية صالحة للاحتباك: ذكر «أنبت» أولاً دال على حذف مصدره ثانياً، وذكر «النبات» ثانياً دال على حذف فعله أولاً، ليكون التقدير: أنبتكم إنباتاً فنبتم نباتاً. ووقوع الفعل في الطرف الأول، ووقوع مصدر من غير الفعل نفسه في الطرف الثاني، هو الذي أرشد البقاعي إلى الاحتباك، وقد صرح كذلك أبو السعود

---

(١) الإعجاز في نظم القرآن- محمود السيد شيخون-ط١ - مكتبة الكليات الأزهرية- ١٩٧٨م.ص٦٦، ٦٨ ص٧٧ بتصرف واختصار.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/ ٤٤٣، ٤٤٤)

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/ ٤٤٣)

بالحذف والتقدير، حيث قال: ويجوز أن يكون الأصل: أنبتكم من الأرض إنباتا، فنبتم نباتا، فيحذف من الجملة الأولى المصدر، ومن الثانية الفعل، اكتفاء في كل منهما بما ذكر في الأخرى.

والآية متظاهرة على إظهار قدرة الله على البعث، وسهولة ذلك عليه، والحذف هنا للإيجاز والاختصار الذي يلائم إظهار قدرة الإنبات المتكررة الواقعة أمام أعين الناس أجمعين، وكلما كان الاستدلال أوجز، كان أسهل في التذكر، وسهولة التذكر مدعاة لتكرار التدبر، والتدبر هو المعين على الإيمان واليقين[١].

يقول الشريف الرضي: في قوله سبحانه : ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقاراً [١٣] استعارة. لأن الوقار هاهنا وُضِعَ موضع الحلم مجازا. يقال : رجل وقور. بمعنى حليم.

فأما حقيقة الوقار الذي هو الرزانة والثقل فلا يجوز أن يوصف بها القديم سبحانه ، لأنها من صفات الأجسام ، وإنما يجوز وصفه تعالى بالوقار ، على معنى الحلم كما ذكرنا.

والمعنى أنه يؤخر عقاب المذنبين مع الاستحقاق ، إمهالا للتوبة ، وإنظارا للفَيْئة والرجعة.

لأن الحليم اسم لمن يترك الانتقام عن قدرة. ولا يسمى غير القادر إذا ترك الانتقام حليما.

---

(١) ينظر الاحتباك في الذكر الحكيم مواقعه وأسرار- د/ إبراهيم صلاح الهدهد- مكتبة الإيمان. ص٢٠.

وقوله تعالى : (لا تَرْجُونَ) هاهنا أي: لا تخافون. فكأنه سبحانه قال : ما لكم لا تخافون للهِّ حلما ؟ وإنما أخّر عقوبتكم ، إمهالا لكم ، وإيجابا للحجة عليكم. و (رجوت) بمعنى: (خفت) أي: لا تخافون لله عظمته، لأن الرّاجي ليس بمستيقن، ومعه طرف من المخافة. وإلّا فعقابه من ورائكم ، وانتقامه قريب منكم. وقال بعض العلماء : إنما كنوا عن الخوف بالرجاء في هذه المواضع ، لأن الراجي ليس يستيقن ، فمعه طرف من المخافة. وقال بعضهم : الوقار هاهنا بمعنى العظمة وسعة المقدرة. وأصل الوقار ثبوت ما به يكون الشيء عظيما من الحلم والعلم اللذين يؤمن معهما الخرق والجهل[١].

وقوله سبحانه : وَاللهُّ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً [١٧] وهذه استعارة. لأن حقيقة الإنبات إنما تجرى على ما تطلعه الأرض من نباتها ، وتخرجه عند ازدراعها. ولما كان سبحانه يخرج البريّة من مضايق الأحشاء ، إلى مفاسح الهواء ، ويدرجهم من الصغر إلى الكبر ، وينقلهم من الهيئات والصور ، كل ذلك على وجه الأرض ، جاز أن يقول سبحانه : وَاللهُّ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ.

وقال بعضهم قد يجوز أن يكون المراد بذلك خلق آدم عليه السلام من الطين ، وهو أصل الخليقة. فإذا خلقه سبحانه من طين الأرض كان نسله مخلوقين منها ، لرجوعهم إلى الأصل المخلوق من طينها. فحسن أن يقول سبحانه : وَاللهُّ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أي استخرجكم من طين الأرض. ونباتا هاهنا مصدر

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة- شرحه: السيد أحمد صقر- دار التراث- القاهرة- ط٢- ١٩٧٣م (ص: ١٩١)، تلخيص البيان فى مجازات القرآن – الشريف الرضي- ت: د/ علي محمود مقلد- دار مكتبة الحياة- بيروت- ١٩٨٦م . ص٣٣٣: ٣٣٥

وقع مخالفا لما يوجبه بناء فعله. وكان الوجه أن يكون : إنباتا. لأنه في الظاهر مصدر أنبتكم. وقوله سبحانه : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً ، لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً [١٩ ، ٢٠] وهذه استعارة. والمراد بالبساط هاهنا : المكان الواسع المستوي. مشبّه بالبساط ، وهو النمط الذي يمد على الاستواء فيجلس عليه. وتصيير الأرض بساطا ، كتصييرها فراشا ومهادا. وهذه الألفاظ الثلاثة ترجع إلى معنى واحد [١].

وهكذا يحمل المجاز في العبارة من المعاني الممتدة الواسعة، ومن الإبداع الفني ذي الجمال المُعْجِب، ما لا يؤدّيه البيان الكلامي إذا اسْتُعْمِل على وجه الحقيقة في كثيرٍ من الأحيان.

مع ما في المجاز من اختصارٍ في العبارة وإيجاز، وإمتاعٍ للأذهان، وإرضاءٍ للنفوس ذوات الأذواق الرفيعة الّتي تتحسَّن مواطن الجمال البياني فَتَتَأَثَّرُ به تَأَثُّرَ إعجاب واستحسان[٢].

والله جعل لكم الأرض بساطا تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم وتوسيط لكم بين الجعل ومفعوليه مع أن حقه التأخير لما مر مرارا من الاهتمام ببيان كون المجعول من منافعهم والتشويق إلى المؤخر فان النفس

---

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن – الشريف الرضي- ت: د/ علي محمود مقلد- دار مكتبة الحياة- بيروت- ١٩٨٦م . ص٣٣٣: ٣٣٥

(٢) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها- عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني- دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت- ط١- ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م (٢/ ٢٢٧)

عند تأخير ما حقه التقديم لا سيما عند كون المقدم ملوحا بكونه من المنافع تبقى مترقبة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن[(١)]
والملاحظ أن الجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي، فتصوره بألفاظها، لتلقيه في النفس، حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى، ظاهرا فيه المهم والأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، وإلا اختل وانهار.
وتمضي الجملة القرآنية، وقد كونت من كلمات قد اختيرت، ثم نسقت في سلك من النظام، فلا ضعف في تأليف، ولا تعقيد في نظم، ولكن حسن تنسيق، ودقة ترتيب، وإحكام في تلاؤم.
ويعتمد القرآن على ذكاء قارئه فيحذف من الجمل ما يستطيع القارئ أن يدركه، لأن السياق يستلزمه ويستدعيه[(٢)]،
وقوله : { ما لكم لا ترجون لله وقاراً } أي : ما لكم لا تعتقدون لله تعظيماً وإجلالاً ، فلا تراقبونه ، ولا تخافون سطوته ، فإنَّ المشاهدة على قدر المراقبة ، فمَن لم يحُكِم أمر المراقبة لم يظفر بغاية المشاهدة . وقد خلقكم أطواراً ، أي : درّج بشريتكم في أطوار مخُتلفة ، وهي سبعة : النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم الجنين ، ثم الطفولية ، ثم الكهولة ، ثم الشيخوخة ،

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود - طبعة دار إحياء التراث (٩/ ٣٩، ٤٠)

(٢) من بلاغة القرآن – أحمد أحمد بدوي- دار نهضة مصر- الفجالة- القاهرة. (ص: ١٠٥، ١٠٦)، (١٢٧)

ثم يرتحل إلى دار الدوام ، وكذلك الروح لها سبعة أطوار : التوبة ثم الورع ، ثم الزهد ، ثم التوكُّل ، ثم الرضاء والتسليم ، ثم المراقبة ، ثم المشاهدة [١].

وأخيرا فقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق. وفي القرآن الكريم مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى اللهّ ، وبين تيسير الأرزاق ، وعموم الرخاء ... جاء في موضع : {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف: ٩٦] وجاء في موضع : {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} [المائدة: ٦٥، ٦٦] وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة ، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد اللهّ ، ومن سنة الحياة كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون. فما من أمة قام فيها شرع اللهّ ، واتجهت اتجاها حقيقيا للهّ بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية اللهّ و اتقت اللهّ وعبدته وأقامت شريعته ، فحققت العدل والأمن للناس جميعا ، إلا فاضت فيها الخيرات ، ومكن اللهّ لها في الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء.

---

(١) البحر المديد ـ تفسير ابن عجيبة (١٤/ ٤١٩)

قال تعالى: {قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)} [نوح: ٢١ – ٢٨]

التحليل البلاغي:

قالَ نُوحٌ أعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربه عزّ وجلّ أي قال عليه السلام مناجيا له تعالى شاكيا إليه عزّ وجلّ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي أي داموا على عصياني فيما أمرتهم به مع ما بالغت في إرشادهم بالعظة والتذكير وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَساراً أي واستمروا على اتباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرتهم أولادهم وصار ذلك سببا لزيادة خسارهم في الآخرة فصاروا أسوة لهم في الخسار والظاهر أن اتباع عامتهم وسفلتهم لأولئك الرؤساء وفي وصفهم بذلك إشعار بأنهم اتبعوهم لوجاهتهم

الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد لا لما شاهدوا فيهم من شبهة مصححة للاتباع في الجملة[١].

أي قال: "رب انهم عصوني"، وقال: "لا تزد الظالمين إلا ضلالا" فوضع الظاهر موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المفرط، وتعليل الدعاء عليهم به، والمطلوب هو الضلال في تمشية مكرهم ومصالح دنياهم، أو الضياع والهلاك، يؤيده ما سيأتي من دعائه عليه الصلاة و السلام. وفي العدول إلى الظَّالمِينَ إشعار باستحقاقهم الدعاء عليهم وإبداء لعذره عليه السلام وتحذير ولطف لغيرهم، وفيه أنه بعض ما يتسبب من مساوئهم وهو معنى حسن فعنده العطف على محذوف إنشائي ولعل الأولى أن يقال إن العطف على (رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي) والواو من المحكي والتناسب حاصل[٢].

إن القرآن الكريم قد انفرد بطريقة فذة في الأداء النفسي، الذي يقوم على رعاية مقتضيات الأحوال، وملاحظة الصلة الدقيقة بين اللفظ والمعنى، والمناسبة بين العبارات والربط بينها، بما يوافق الانفعال النفسي من عنف ورقة، فهو يأخذ النفس دائما بمواقفه، ويجعلها شديدة الصلة بها، والاتحاد معها،

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ت: علي عبد الباري عطية- دار الكتب العلمية - بيروت - ط١- ١٤١٥ هـ. (١٥/ ٨٥)

(٢) تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٨٧)، وينظر إرشاد العقل السليم لأبي السعود - (٩/ ٤١)

والاستجابة لها[١]. من ذلك توظيفه صيغ المبالغة بطريقة تحدث إيقاعا خاصا، ذا جرس يتصل بالنطق والسماع، ونغمة مشوبة بالقوة والعنف، فصيغة "كبارا" في قوله تعالى "ومكروا مكرا كبارا"... ومعنى الكُبَار: أكبر من الكبير ، والكُبّار أكبر من الكُبَار...، إن هذه الصيغة وهي صفة للمكر تفيد بلاغة في المعنى ووقعا شديدا على النفس، وإيقاعا يشبع الفم انتفاخا وضغطا، فتحس النفس وكأنها تنحدر إلى الأرض، تعبيرا عن شدة مكر الكفار وعتوهم. وأن تكرار الكاف ثلاث مرات يعطي نغمة الإيقاع تموجاتها، ....والصيغة التعبيرية لمحتواه[٢].

وتقديم الخبر بإهلاك قوم نوح مع أنه كان بسبب دعائه عليهم للاهتمام بتعظيم هذا الرسول، في إجابة دعوته، تحذيرا للعرب أن يخرجوا رسولهم فيضطروه إلى مثل ذلك[٣].

كذلك تنكير النار إما لتعظيمها وتهويلها أو لأنه تعالى أعد لهم على حسب خطيئاتهم نوعا من النار فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ،وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى وبأنها غير قادرة على نصرهم وتهكم بهم[٤]. واستعمال النكرة، عامة تفيد معناها مطلقا من كل قيد، أما ما يذكره

---

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه- د، عبد الحكيم بلبع- مكتبة وهبة.- ص٦٤

(٢) النظم الفني في القرآن- عمر السلامي- مؤسسات عبد الكريم عبد الله- تونس ١٩٨٠م. ص ٢٤١، ٢٤٢

(٣) دلالات التقديم والتأخير ص ٦٦٩، ٦٧٠.

(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ٤١)

علماء البلاغة من معان استفيدت من النكرة، فإنها لم تفدها بطبيعتها، وإنما استفادتها من المقام الذي وردت فيه، فكأنما المقام هو الذي يصف النكرة، ويحدد معناها[١]، وتنكير مكرا أفاد المبالغة فيما فعلوا، وإذا اعتبر التنوين في (مكرا) للتفخيم زاد أمر المبالغة في مكرهم، أي كبيرا في الغاية، وذلك لاحتيالهم في الدين وصدهم للناس عنه، وإغراءهم وتحريضهم على أذية نوح عليه السلام[٢].

وتأمل الدعاء القرآني في هذه السورة الذي يعلوه صخب رهيب: فها هو ذا نوح عليه السلام يدأب ليلا ونهارا على دعوة قومه إلى الحق، ويصر على نصحهم سرا وعلانية، وهم يلجون في كفرهم وعنادهم، ويفرون من الهدى فرارا، ولا يزدادون إلا ضلالا واستكبارا، فما على نوح –وقد أيس منهم– إلا أن ينطلق بكلمات هذا الدعاء الثائرة الغضبى، في وجوههم مديدة مجلجلة، بموسيقاها الرهيبة، وإيقاعها العنيف، وما أظنك تتخيل الجبال إلا دكا، والسماء إلا متجهمة عابسة، والأرض إلا مهتزة مزلزلة والبحار إلا هائجة ثائرة، حين دعا نوح على قومه بالهلاك والتبار فقال : "رب لا تذر على الأرض من الكافرين.... تبارا"[٣].

لقد خَصَّ نوح عليه السلام نفسه بطلب المغفرة من ربّه، وأَتْبَعَهُ بطلب المغفرة لوالديه، وأَتْبع ذلك بطلب المغفرة لكلِّ مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ مُؤْمِناً، فَعَمَّم،

---

(١) من بلاغة القرآن ص١٢٨

(٢) تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٨٥)

(٣) الإعجاز في نظم القرآن لشيخون– ص ١١٤، ١١٥ باختصار

ومعلومٌ أنَّه ممَّنْ دَخلَ بيتَهُ مُؤْمِناً فأدْخَلَ نفسه في العموم، وأخيراً قال: "وللمؤمنين والمؤمِنَات" ومعلوم أنَّ من دَعَا لهم سابقاً يَدْخلون في عموم المؤمنين أو في عموم المؤمنات، فكأنّه شمَلَهم بالدّعاء الأخير، فأفاد هذا التعميم بعد التخصيص تأكيد الدعاء وتكريره لمن ذُكِرُوا سابقاً وكان التقديم للاهتمام والعناية[1].

و قوله تعالى: (... ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) وقال في أخر السورة: (.. ولا تزد الظالين إلا تبارا). للسائل أن يسأل عن الأول واختصاصه بالإضلال، وعن الثاني واختصاصه بالإهلاك الذي هو التبار؟

الجواب أن يقال: إن الأول جاء بعد قوله ... ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيراً..

أي: لما قالوا: ... لا تذرن آلهتكم ولا تذرُن وَدّا ولا سواعا..، فأمروا أتباعهم بالتمسك بعبادة هذه الأصنام، وأضلوهم عن طريق الرشاد دعا عليهم نوح عليه السلام بان يضلهم التواب بعد استحقاق العقاب ليجاوب قوله: (وقد أضلوا كثيرا) .

وأما الآخر فإن معناه؟ زدهم هلاكا على هلاك، وعذابا فوق عذاب بما وافوا عليه القيامة من كفر وضلال، وذلك عند دخول النار، فاقتضى كلّ من المكانين ما جاء فيه[2].

---

(١) البلاغة العربية (٢/ ٧٠)، ولالات التقديم والتأخير ص٦٧٠.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز- لابن أبي الفرج الأردستاني- دار الآفاق الجديدة- بيروت- ط٤ – ١٩٨١م. ص٥٠١

وأخيرا:

فإن الفاصلة في القرآن مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها، تعلقا تاما، بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم، فهى تؤدى في مكانها جزءا من معنى الآية، ينقص ويختل بنقصانها(١).

فإن الحروف المستعملة في الفاصلة القرآنية تنوعت، وكان أكثرها ورودا بشكل عام، حرف النون، تلاها حرف الميم ثم الراء، ثم الدال، ثم الألف المقصورة ثم الباء، ثم اللام، ثم الهاء، ثم الياء، ثم القاف، ثم ألف المد، ثم التاء، ثم العين، ثم الفاء، ثم الجيم، ثم الطاء، ثم الزاي، ثم الهمزة، ثم الظاء، ثم السين، ....(٢)

وعلى عكس الترتيب في الكثرة، فقد جاءت فواصل سورة نوح أقلها حرف الميم والنون، وأكثرها حرف الراء، فكانت فواصل السورة كالتالي: حرف الميم مرة واحدة، حرف النون ثلاث مرات، حرف الراء سبع عشرة مرة، القاف مرة واحدة، الجيم مرة واحدة، التاء والطاء واللام كل منها مرة واحدة.

وذلك لأن الفاصلة القرآنية تسلك عدة طرق للحفاظ على المشاكلة اللفظية وجمال الإيقاع من ناحية، وتجديد نشاط السامع والإبقاء عليه يقظا مرهف السمع، دائم المفاجأة بما لا يتوقع من الأنغام والدلالات من ناحية

---

(١) من بلاغة القرآن (ص: ٧٥)

(٢) الفواصل القرآنية دراسة بلاغية- د/ السيد خضر – مكتبة الإيمان- ط١- ٢٠٠٠م(ص: ٧٩)

أخرى. وهو في سبيل الحفاظ على وحدة النغم و جمال الإيقاع، جاءت بعض سوره متماثلة الروي، مرصعة حينا، ومتوازية في أكثر الأحيان، وجاءت سور أخرى مزينة بالسجع مع تنوع الروي، من مقطع إلى مقطع، مفصلة مقاطعها على المعاني والأغراض، موزعة موسيقاها في إحكام بديع على المواقف والأحداث، وفي أحيان غير قليلة يفاجئ النظم المتلقي –على غير ما يتوقع– بفاصلة منفردة يكسر بها وحدة الإيقاع، لتلفته إلى معنى جليل، وغاية يتوخى النظم تركيز الاهتمام عليها[١].

والقرآن يختار الفاصلة بدقة عجيبة تدل على إعجاز بياني ، فهي من جهة الدلالة تتوافق مع مضمون الآية ، ومن جهة الصوت تتوافق مع الإيقاع العام للآيات السابقة واللاحقة[٢] .

إن في القرآن الكريم لوحات جمالية ناطقة معبرة ، هذا بعض ما توصلت إليه بعد تدبّر لهذا الكتاب الخالد ، واللوحة القرآنية تحديداً مجموعة آيات متتابعات في موضوع واحد ، وهي لوحة تتسم بالحياة والخلود ، وتعرف طريقها إلى الفطرة، فالفطرة من خلق الله ، والقرآن كلام الله ، وهما إذن يتلاقيان عندما تسلم الفطرة من الآفات الكثيرة التي تفسدها ، وعندما تصفو النفس والعقل والقلب لتلقي القرآن ، هنالك يُرجى لبذور العلم النافع أن تنبت وتزهر ، وللثمرات أن تكون ناضجات طيبات .

---

(١) دراسات في إعجاز القرآن – محمد الأمين الخضري– مكتبة وهبة. ص٢٣١

(٢) الفواصل القرآنية دراسة بلاغية– د/ السيد خضر (ص: ١٤٠)

إن اللوحة القرآنية لوحة بديعة حية متحركة نابضة ، ترضي العقل وتشبع الذوق السليم والوجدان المرهف ، وتمتزج فيها العناصر المكونة امتزاجاً بديعاً ، حيث يؤدي كل عنصر دوره في السياق في انسجام تام يجعل جمال اللوحة يتسرب إلى المتلقي، فتؤدي اللوحة – حسب استعداد المتلقي – الغرض المراد منها ، وهو أولاً وآخراً الهداية إلى طريق الحق ، ومن صور الهداية هذه التمتع بجمال القرآن وإعجازه...) {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤] والقرآن يعتمد التصوير أساساً من أسس التعبير فيه ، والفاصلة عنصر أساسي من عناصر التصوير باللوحة القرآنية ، حيث إن اللوحة القرآنية تتبع كل آياتها تقريباً فاصلة واحدة أو فواصل متقاربة الإيقاع،حتى إذا تمت اللوحة وبدأت لوحة جديدة أو موضوع جديد من موضوعات السورة تغيرت الفاصلة، وهي بذلك تدخل عنصراً أساسياً من عناصر تكوين اللوحة القرآنية.

وهذه اللوحات تعتمد الدلالة واللفظ بما يحمله من أصوات وإيقاع عناصر مكونة للوحة ، ويتضح هذا كثيراً في السور المكية القصار على وجه الخصوص، في بدايات هذه السور إيقاعاً خاصاً وفواصل خاصة، وفي الاستشهاد بذلك سيعرض البحث لوحة سورة نوح التي ساعدت الفواصل على تصويرها:

سورة نوح بدأت بإخبار الله عز وجل أنه أرسل نوحاً إلى قومه ، ثم يقصّ طرفاً من خطاب نوح إليهم في الآيات(١-٤)وفواصل هذه الآيات" أليم ، مبين ، أطيعون ، تعلمون" وفيها كان الخطاب مباشراً من نوح إلى قومه ،

ولكنهم كذبوه ولم يجد منهم إجابة لدعوته ، ولذا اتجه إلى ربه بالخطاب شاكياً مناجياً، وهنا تتغير الفاصلة) قال ربِّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ((٥) ويستمر ذلك الخطاب إلى نهاية السورة ويتبع فاصلة واحدة هي الألف المنصوبة المنونة التي تتحول إلى حرف مد بالوقف على التنوين ، فيناسب حرف المد هذا جوّ الشكوى والمناجاة والحزن !! وتساعد الفاصلة في رسم اللوحة ونقل الصورة كاملة ، وهذا بلا شك لون من ألوان الإعجاز في هذا الكتاب الخالد[1] .

والاستغناء بلفظ عن آخر ظاهرة لدواع سياقية، لذا فإن القرآن الكريم يختار اللفظ بدقة متناهية ، ومن ذلك أن القرآن يستعمل كثيراً صيغة غفور في الفواصل ، ولكن يستغني عنها بغفّار لتتوافق الفواصل في) فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً((نوح: ١٠) والفواصل هنا هي (إسراراً وغفاراً ومدراراً)أما غفور وغفّار في حق الله تعالى فهما صيغتا مبالغة ولا تفاضل بينهما دلالياً ، ولكن حاجة السياق تحدد المختار منهما ، ومثله(ومكروا مكراً كُبّاراً) (نوح :٢٢) حيث أوثرت صيغة كبّار على كبير لإبداء المبالغة وتحقيق الإيقاع

والفواصل هنا إسرارا- غفارا- مدرارا وقد ناسبت كل صيغة موضعها تماما وأدت وظيفتها الإيقاعية على خير وجه، ولا أظن أن ثمة تفاضلا دلاليا

---

(١) الفواصل القرآنية لسيد خضر (ص: ١٤٧، ١٤٨)

بينهما، إن قوم نوح طلب إليهم استغفار الله تعالى لأنه غفار، وكذلك أهل سبأ طلب إليهم شكر الله تعالى والتوبة إليه لأنه غفور.

والمعتاد في الفواصل استعمال صيغة "كبير" للمبالغة، ولكن الفواصل هنا لا تحتملها، ولذا أوثرت عليها صيغة فُعّال وهي أشد من فُعَال المخففة في المبالغة[1]. وقد قرئ كبارا وكُبَّاراً بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ، وَهُوَ مُبَالَغَةٌ فِي الْكَبِيرِ، فَأَوَّلُ الْمَرَاتِبِ الْكَبِيرُ، وَالْأَوْسَطُ الْكُبَارُ بِالتَّخْفِيفِ، وَالنِّهَايَةُ الْكُبَّارُ بِالتَّثْقِيلِ، وَنَظِيرُهُ: جَمِيلٌ وَجُمَالٌ وَجُمَّالٌ، وَعَظِيمٌ وَعُظَامٌ وَعُظَّامٌ، وَطَوِيلٌ وَطُوَالٌ وَطُوَّالٌ.[2]قولهم : {لا تذرن آلهتكم} أي لا تتركنها على حالة من الحالات لا قبيحة ولا حسنة ، وأضافوها إليهم تحسباً فيها ، ثم خصوا بالتسمية زيادة في الحث وتصريحاً بالمقصود فقالوا مكررين النهي والعامل تأكيداً : {ولا تذرن} ولعلهم كانوا يوافقون العرب في أن الود هو الحب الكثير ، فناسب التأكيد وأبلغوا فيه فقالوا : {ولا يغوث} ولما بلغ التأكيد نهاية وعلم أن المقصود النهي عن التأكيد للعلم بإرادته ، وكان هؤلاء ناساً صالحين ، فلما ماتوا حزن عليهم الناس ثم زين لهم إبليس تصويرهم تشويقاً إلى العمل بطرائقهم الحسنة فصوّروهم ، فلما تمادى الزمان زين لهم عبادتهم لتحصيل المنافع الدنيوية ببركاتهم ثم نسي القوم الصالحون ، وجعلوا أصناماً آلهة من دون الله ، وكانت عبادة هؤلاء أول عبادة الأوثان فأرسل الله سبحانه وتعالى

---

(١) الفواصل القرآنية لسيد خضر ص١١٩، ١٢٠ بتصرف

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٤/ ٦٢١) وينظر التفسير الكبير (٣٠/ ٦٥٦)

نوحاً عليه الصلاة والسلام للنهي عن ذلك إلى أن كان من أمره وأمر قومه ما هو معلوم ، ثم أخرج إبليس هذه الأصنام بعد الطوفان فوصل شرها إلى العرب ، فكان ود لكلب بدومة الجندل وسواع لهذيل ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير لآل ذي الكلاع ، وقيل غير ذلك - والله أعلم قال البغوي : سواع لهذيل ويغوث لمراد ، ثم لبني غطيف بالجرف عن سبأ ويعوق لهمذان[١].

المتأمل في السورة يجد الأسلوب الخبري هو الغالب على جو السورة، فبرغم تعدد مجيء حلقات من قصة نوح، عليه السلام، إلا أن الحوار في هذه السورة جديد بمعناه ومبناه، فهو شكوى من شيخ الأنبياء لربه، بعد أن مكث بين قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، لا يكل ولا يمل من دعوتهم، ولا ييأس من إيمانهم و محاولة إنقاذهم من الكفر المودي بهم إلى جهنم وبئس المصير.

ودَيَّاراً لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي النَّفْيِ الْعَامِّ، يُقَالُ: مَا بِالدَّارِ دَيَّارٌ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِي جَانِبِ الْإِثْبَاتِ، قَالَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ: هُوَ فَيْعَالٌ مِنَ الدَّوْرِ، وَأَصْلُهُ دَيْوَارٌ فَقُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً وَأُدْغِمَتْ إِحْدَاهُمَا فِي الْأُخْرَى، قَالَ الْفَرَّاءُ وَالزَّجَّاجُ: وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: مَا بِهَا دَيَّارٌ أَيْ نَازِلُ دَار[٢].

ويلاحظ أن السورة افتتحت بجملة فيها براعة استهلال دلت على كل ما جاء في السورة، {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (٨/ ٢٦٣)

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٦٥٩)

عَذَابٌ أَلِيمٌ } [نوح: ١] (الإنذار قبل العذاب)، فكانت السورة بين ترهيب وترغيب وختمت بالدعاء والعذاب فناسب المطلع الختام، وكانت غاية الحسن في الاستهلال والانتهاء.

ويمكن تلخيص أبرز ألوان البلاغة التي جاءت في السورة:

١- حسن الابتداء

٢- التأكيد ودوره في تحقيق المعنى وبيان أهميته.

٣- بلاغة الخبر في تصوير المعنى.

٤- الطباق

٥- الأساليب الإنشائية ودورها في أداء المعاني النفسية في السياق.

٦- الفصل والوصل ودوره في تأدية المراد. وسر العطف بغير الواو.

٧- أسرار التقديم.

٨- براعة النظم في توظيف المفردات التي تفردت السورة بها، وأهمها صيغ المبالغة.

٩- الحذف وحسن توظيفه والاحتباك ومواطنه في السورة الكريمة.

١٠- التشبيه والمجاز والكناية في السورة ودورهم في جمال التصوير في القصة.

١١- التعريف والتنكير ومجيء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

١٢- حسن الفاصلة.

١٣- براعة الختام.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، لقد خلص البحث إلى نتائج أهمها:

- إن التناسب بين السورة وسابقتها ولاحقتها سر من أسرار إعجازها.
- إن ما ظاهره تكرار للقصة لم يكن كذلك، وإنما في كل مرة ذكرت فيها القصة كانت تحمل تفصيلا جديدا ومعنى لم يأت في سابقتها.
- إن ألوان البلاغة التي جاءت في السورة كانت أداة من أدوات بيان سر الإعجاز في نظم السورة، حيث كان لبراعة الاستهلال دوره في بيان بلاغة نظم السورة وارتباطه بختام السورة السابقة وتناسبه معها.
- كذلك حسن الختام وارتباطه بمطلع السورة التالية وتناسبه معها، وتناسبه مع مطلع سورة نوح.
- كذلك استخدام الجمل الخبرية بشكل أكبر من الجمل الإنشائية، والتي تعانقت مع الجمل الإنشائية وصورت انفعال نبي الله نوح عليه السلام، وبينت نفسيته تجاه ما يعانيه مع قومه. فبالإنشاء يقوى الخبر وبهما معا تكتمل الصورة المعبرة المؤثرة.
- كذلك التأكيد الذي أتى في بداية السورة وتوالى مع جملها الافتتاحية حتى ختامها، فأدت ما أريد بها من معان نفسية ومعنوية. مع ما انفردت به السورة من مفردات اتسقت في نظم السورة، فكانت معجزة بلفظها ونظمها.

- بينت السورة أن الأسلوب القرآني ينفرد بطابع خاص معجز، في القصة، وأن إعجازه نلمسه في جانبي الصياغة والعرض، لما امتاز به من روعة البيان، علاوة على أن مشاهد قصصه مكملة لبعضها متممة لأغراضها، معلنة عن إعجازها البليغ.
- إن الألوان البلاغية قد امتازت بوضوحوها وحسن تصويرها، وجمال تعبيرها، وانتقاء ألفاظها وخفتها، فضلا عن الإتقان والإحكام وجودة السبك، وقوة التأثير، مع الإيحاء المبدع، والإيجاز المعجز.

ثبت المصادر والمراجع

- الاحتباك في الذكر الحكيم مواقعه وأسرار- د/ إبراهيم صلاح الهدهد- مكتبة الإيمان.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود - طبعة دار احياء التراث .
- الاستعارة. نشأتها. تطورها. أثرها في البلاغة العربية- محمود السيد شيخون- ط١ - دار الطباعة المحمدية- ١٩٧٧م.
- أسرار البلاغة القرآنية في سورة تبت يدا أبي لهب- د/ محمود توفيق سعد- مكتبة وهبة- ط١ - ٢٠١٧م.
- الأسلوب الكنائي نشأته- تطوره- بلاغته- -د/ محمود السيد شيخون- ط١ - مكتبة الكليات الأزهرية-١٩٧٨م.
- الإعجاز في نظم القرآن- محمود السيد شيخون-ط١ - مكتبة الكليات الأزهرية- ١٩٧٨م.
- الإعجاز القصصي في القرآن –د/ سعيد عطية علي مطاوع- دار الآفاق العربي- ط١ - . ٢٠٠٦م.
- إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحي الدين الدرويش- دار ابن كثير- ط٣- ١٩٩٢م.
- البحر المديد ـ تفسير ابن عجيبة- دار الكتب العلمية ـ بيروت- ط٢/ ٢٠٠٢ م ـ ١٤٢٣ هـ

- البرهان في تناسب سور القرآن- أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (المتوفي: ٧٠٨هـ- ت: محمد شعباني- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب- ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.
- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها- عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني- دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت- ط١- ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة- شرحه: السيد أحمد صقر- دار التراث- القاهرة- ط٢- ١٩٧٣م التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور- دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧ م.
- التصوير الفني في القرآن لسيد قطب- دار المعارف.
- التفسير القرآني للقرآن- عبد الكريم يونس الخطيب - دار الفكر العربي – القاهرة
- التفسير الواضح- د/ محمد محمود حجازي - دار التفسير للطبع والنشر- ط٨- ١٩٨١م.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن – الشريف الرضي- ت: د/ علي محمود مقلد- دار مكتبة الحياة- بيروت- ١٩٨٦م .
- حسن الابتداء في سور القرآن الكريم- د/ عبد المجيد عبد المجيد هنداوي – ١٩٩٩م.
- دراسات في إعجاز القرآن – محمد الأمين الخضري- مكتبة وهبة.

- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز- لابن أبي الفرج الأردستاني- دار الآفاق الجديدة- بيروت- ط٤ – ١٩٨١م.
- دلائل الإعجاز- للإمام عبد القاهر الجرجاني- مكتبة المدني- القاهرة.
- دلالات التقديم والتأخير في القرأن الكريم دراسة تحليلية- د/ منير محمود المسيري- مكتبة وهبة.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ت: علي عبد الباري عطية- دار الكتب العلمية – بيروت - ط١ - ١٤١٥ هـ.
- العزف على أنوار الذكر- د/ محمود توفيق سعد- ط١ - ١٤٢٤هـ
- الفواصل القرآنية دراسة بلاغية- د/ السيد خضر – مكتبة الايمان- ط١- ٢٠٠٠م.
- في ظلال القرآن – سيد قطب- دار الشروق- القاهرة.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – لجار الله الزمخشري- ت: عبد الرزاق مهدي-دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للإمام البقاعي- مكتبة المعارف – الرياض- ط١ - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .
- مفاتيح الغيب - التفسير الكبير لفخر الدين الرازي -دار إحياء التراث العربي – بيروت - ط٣- ١٤٢٠ هـ

- مفتاح العلوم للسكاكي – علق عليه: نعيم زرزور – ط٢ – دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م
- من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب – د/ محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – ط٢ – ١٩٩٦م.
- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم الفاء – ثم. د/ محمد الأمين الخضري – مكتبة وهبة –ط٢ – ٢٠٠٧م.
- من بلاغة القرآن – أحمد أحمد بدوي – دار نهضة مصر – الفجالة – القاهرة.
- النثر الفني وأثر الجاحظ فيه – د، عبد الحكيم بلبع – مكتبة وهبة.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – للإمام البقاعي – دار الكتب العلمية – بيروت –ط٢ – ٢٠٠٦م
- النظم الفني في القرآن – عمر السلامي – مؤسسات عبد الكريم عبد الله – تونس ١٩٨٠م.
- النظم الفني في القرآن للشيخ عبد المتعال لصعيدي – مكتبة الآداب.